

قطاع الثقافة

الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود

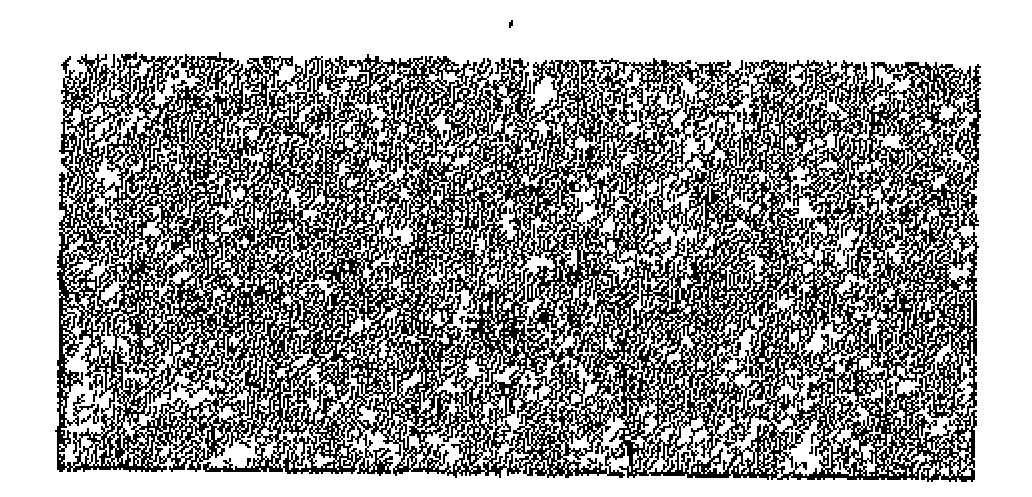
المسيخ الدجال

دكتور مصطفى محمود

دار

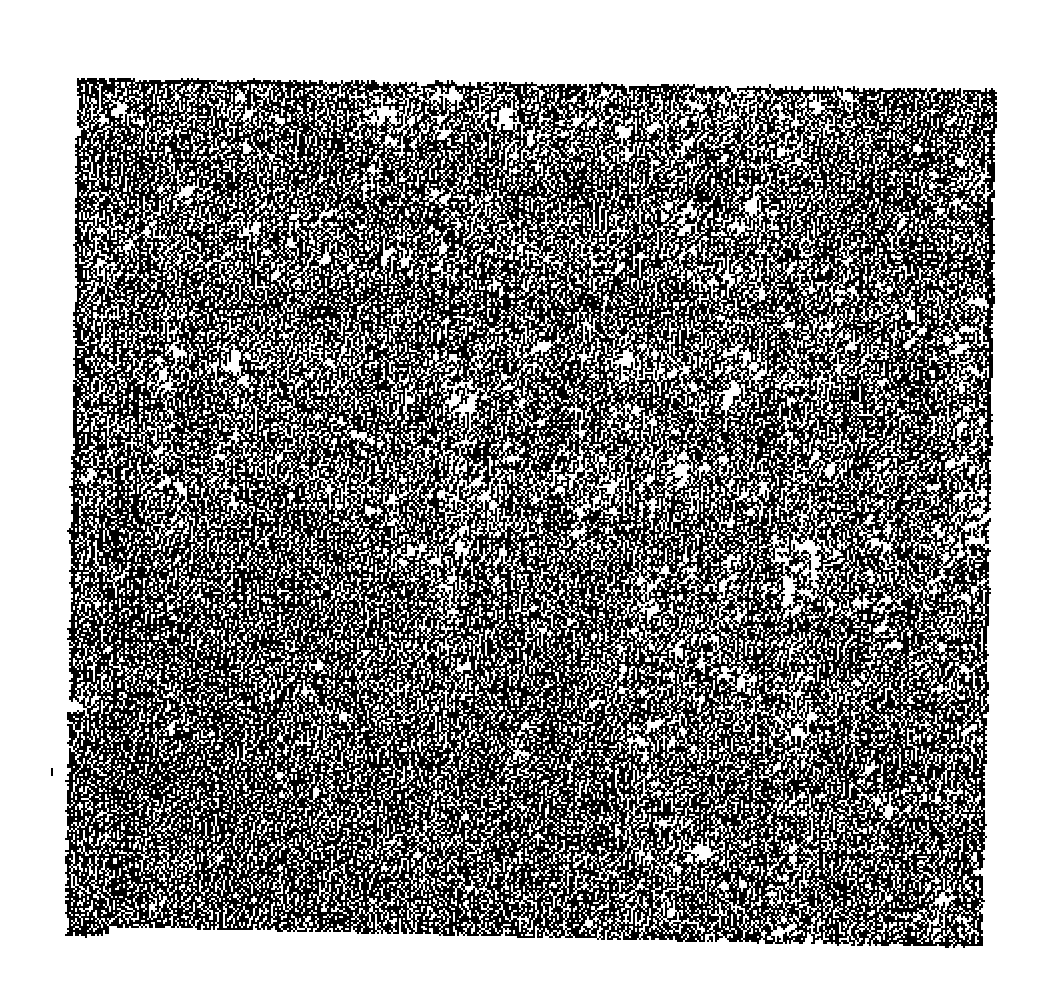
أخبار اليوم

قطاع الثقافة
والكتب والمكتبات



رئيس مجلس الإدارة :

د. محمد عهدى فضلى



thakafa.ad@gemail.com

دار أخبار اليوم
قطاع الثقافة
جمهورية مصر العربية
٦ شارع الصحافة القاهرة
فاكس : ٢٥٧٩٥٨٩٦

الدكتور مصطفى محمود

المسيخ الدجال

تصميم الغلاف :

د.عبد الكريم محمود

مقـــدمـة

رسائل كثـيرة جاءتنى أثناء نشر « المسـيخ الدجال » يســأل أصـحابهـا : هل يجوز لأحـد أن يدخل أحـداً فى الجنة أو النار .. وهل يجـوز لأحد أن يدعى العلم بنتـيجـة الحســاب فى الآخرة .. وهل دخل أحـد فى علم الله أو أطلع على الغـيب .. وهل هذا الكلام من الدين .

وقد أخطأ الذين قـرأوا روايتى بهذا المفهـوم ، وأرى لزاماً علىّ أن أوضـح ، فليس مـا كـتـبت ديناً ولا علمـاً ؛ بل هو فن وخـيـال وأسطورة ، وهو يدخل فى باب الفانتازيا والرؤى .

والرواية كوميديا سياسيـة تستخدم هذا الإطار الفانتازى لتنقد شـخصيات وآراء ومذاهب ، ولتـخوف من مصير الظلم والظالمين ، ولتورد العـبرة والحكمـة والعظة ولتلتمـس لها مداخل سـهلة إلى القلب .

وليس فيمـا كتبت دعوى علم أو دعـوى نبوءة ؛ بل هى آراء قد

تخطىء وقد تصيب وخيال لا يشبه الواقع فى شىء .

وقد نكون نحن فى هذا اليوم المشهود أسوأ حالا من كل من نقدناهم ، نعوذ بالله من المقت والإبعاد .

إنما هو الفن .. والفن الخير .. الذى لا يريد سوى التحبيب فى الخير والتنفير من الشر .

ولم أكن فى يوم من الأيام رجل دين بل أنا فنان دخلت إلى رحاب الدين من باب الفضل الإلهى ، ومن باب الحب والاقتناع ، وليس من باب الأزهر وكان حكمى حكم الشاعر الذى أحب الله فكتب فيه قصيدة وبنى له بيتاً ولكنه ظل دائما الفنان بحكم الفطرة والطبيعة .. ذلك الفنان الذى مملكته الخيال والوجدان .

والفن كان دائماً ضعفى وقوتى .

ومثل كل فنان كان للجمال علىّ مداخل .

وكنت ابن آدم الخطاء .

ولهذا لم أدع لنفسى عصمة .

ولهذا ما رأيتنى نازعت أحداً خطأنى ولا كرهت أحداً صوبنى .. بل عهدت نفسى دائماً أراجع ما أكتب وأصحح فيه الطبعة بعد الطبعة .. وأقبل بصدر مفتوح نقد الآخرين .. فإن رأيتنى كتبت صواباً فمن الله ، وإن كتبت خطأ فمما سولت لى نفسى .

بهذه الروح ، أحببت دائماً أن يقرأنى الناس ، فما تصورت نفسى أبداً مفسراً لقرآن أو حاكماً فى قضية فقه أو شريعة ، وإنما

هى محاولات فهم من مفكر ، دوره لا يزيد على إثارة العقل وإخراجه من رقاده ، وإيقاظ القلب من مواته ، وتفتيحه على محبة الله، فإن استطعت أن أحمل رجلا مبتعداً إلى العودة إلى طريق الحق .. وإلى فتح المصحف .. فهذا غاية رسالتى ومنتهى مرادى وأقصى دورى .. أما ما يبقى من شأن تفقيه هذا الرجل فى دينه فهذا دور العلماء الأجلاء والمتخصصين ، وحسبى أنا أنى قد جئت به إلى بابهم وأثرت حبه وفضوله وأيقظت استعداده ، فما أنا بالعالم ويخطىء من يقرؤنى على أنى عالم ، بل أنا مجرد فنان محب ينتهى دوره عند إثارة حب الحق والحقيقة فى قلب قارئه ، وفى هذا فليحاسبنى القراء والنقاد ولا أكثر .

وعن ضعفى وأخطائى لا يملك إلا الله أن يرحمنى ، وإليه أتوجه فى كل لحظة لا يكف لى خوف ولا رجاء .

وأحسب أن هذا خال توفيق الحكيم حينما يكتب فى الإسلاميات ، أو طه حسين حينما يكتب فى السيرة ، أو العقاد حينما يكتب فى القرآن ، فمثل هؤلاء لا يحاسبون كفقهاء ولا أحد يقرأ لهم كما يقرأ للشافعى وابن حنبل وأبى حنيفة ، وإنما نقرأ لهم كفنانين ومفكرين يحدثوننا عن الله بلغة جديدة فيها جلوة الفن ، فيستطيعون أن يجتذبوا بهذه اللغة فراشات مبتعدة غافلة ، لم يكن من الممكن أن تصل إليها لغة ابن حنبل أو أبى حنيفة .

ولا شك أن قلم توفيق الحكيم حينما تناول قصة أهل الكهف قد خرج عن نص القرآن ، وأضاف الكثير من الخيال وانطلق وشطح فلم يقل أحد .. هل ما كتبت لنا من الدين .. بل قرأناه

جميعاً على أنه فن وحاسبناه على مراده وأهدافه .. أما الشكل والإطار فتلك مواصفات يحكم فيها الفن والتفنن وتتحكم فيها أصول الحرفة والصناعة.

والفن أعظم جهاز دعاية للدين بشرط ألا نقيده .. وما أحوج الإنسانية اليوم فى عصر المادية والإلحاد إلى فن ، يأخذ المسرح من العرى والعهر والهزل والفحش ليقدم فناً يدعو إلى الخير والعدل والحق والله .. فناً يقدم هذه المضامين العالية دون أن يفقد مواصفات الفن وجاذبيته وخفة روحه ولطفاته .

وتلك هى رسالتى ..

وذلك هو مكانى الذى أحلم به على رقعة المستقبل ..

المسيخ الدجال

مضت على الرجل عشرون سنة وهو يتعبد الله فى صومعته عند رأس الجبل ، حتى اشتهر فى القرية بأنه الرجل المبارك ، وكان أهل القرية البسطاء يصعدون له الطعام ويقبلون يده ، ويأخذون منه العهد ويحملون له المرضى ليشفيهم والأطفال ليدعو لهم .

ولكن الله كان يعلم أن هذا الرجل فاسق برغم صلاته وصومه وعبادته ، وأنه يحب الدنيا حب العبادة برغم عزوفه الظاهر عنها ، فما صعدت إليه امرأة جاره بطعام إلا تطلع إلى ساقيها وخالس النظر إلى تكوير ثديها وتدوير ردفها وبياض نحرها وإحمرار ثغرها ودموية خدها .. وما سجد بعد ذلك إلا وتراءت له المرأة فى القبلة ، وما رقد لينام إلا احتلم بها وضاجعها حتى قضى منها الوطر وشفى الغليل .

ولهذا كان إذا افترش سجادته ورفع يديه فى تكبيرة الإحرام

قائلا .. الله أكبر .. ردت عليه الملائكة قائلة .. كذبت والله .. فإن أى امرأة عندك أكبر من الله .. فإذا قرأ الفاتحة وقال إياك نعبد وإياك نستعين .. قال الله .. كذبت يا شيخ المنافقين فما إيانا تعبد وما إيانا تستعين .

ولهذا برغم العشرين سنة من الصلاة والصوم والعبادة لم ينزل الله عليه الملائكة بالبشرى ، كما يفعل مع الأولياء الصادقين وإنما أنزل عليه إبليس .

وجاءه إبليس فى صورة نور باهر بين السماء والأرض وقال له : أنا الله .. فانتفض العابد مذهولا وقال .. سبحانك ربى .

قال إبليس :

– لقد رفعنا عنك التكليف يا شيخ – من اليوم أعفيت من التكليف فلا صلاة ولا صوم ولا زكاة ولا حلال ولا حرام .. غفرنا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .. افعل ما تشاء فهو عندنا مقبول .. وحسبك النية .. إذا جامعت امرأة بنية أنها زوجتك وجامعتك بنية أنك زوجها فأنتما عندنا زوجان .

قال الشيخ وقد صادف الأمر هوى فى نفسه :

– وماذا يكون من أمر زوجها ؟

قال إبليس :

– يكون هو الزانى الملعون .

قال الشيخ وهو يهرش لحيته سعيداً بهذه الشريعة المريحة :

– تمام .. تمام يا رب .

قال إبليس :

– وما تحتاج إليه من مال الآخرين فهو مالك وحلالك ، وما تصبو إليه من محارمهم فهو حريمك ، ومَنْ يتبعك منهم فهو ملك يمينك تفعل به ما تشاء .. وعليك أن تدعو لهذه الشريعة الجديدة التى نسخنا بها شرائع التوراة والانجيل والقرآن ، وخففنا بها على الناس ورفعنا عنهم الحرج .. فلا حرج على مَنْ يطلب حراماً أن يستحله بنية الحلال ، فيفعل ما يهوى وإن خالف ظاهره باطنه .. تلك هى وصايانا الجديدة وعليك بالدعوة لها .

قال الشيخ فى خوف :

– ولكن كيف أدعو لهذا الأمر الذى يحطم جميع الشرائع ولا حجة فى يدى ؟

قال إبليس :

– سنجرى على يديك الكرامات .. خذ .. هذه عصاً تنزل بها المطر وتدق بها الأرض فينبع البترول .. وتمشى بها فى الماء وتعبر البحر وتركبها إلى أقصى الشرق والغرب فتصل إلى ما تبغى فى لحظات .. وتضرب بها على رأس عدوك فتميته ثم تضربه ضربة أخرى فتحييه .. خذ .. وجرب .

وأمسك الشيخ بالعصا فى رهبة .. وتردد قليلا .. ثم دق بها الأرض فنبع البترول .. وأشار بها إلى السحب فأمطرت وركبها

فحملته كالريح إلى أقصى الأرض فى ثوان .. ونزل بها إلى البحر فمشت به ومشى بها كأنه على يابسة وضرب بها على رأس خادمه فمات لساعته ثم ضربه مرة أخرى فعاد إلى الحياة .

فانبسطت أسارير الشيخ وبدأ عليه الانبهار .. ثم عاد ليقول بعد تفكير :

– ولكن كيف أدعو إلى هذا المذهب الجديد .. وأنا لا أجيد الخطابة ولا أتقن حرفة الكلام ولست فناناً ولا كاتباً .

فقال إبليس :

– خذ هذا القلم واكتب به فتصبح أكبر كاتب فى زمانك يقرأ لك الملايين ويتبعك الملايين .

ثم عادت السماء فأظلمت فجأة واختفى النور الباهر .

ونظر الشيخ إلى القلم فى يده .. وفتح كراسة وبدأ يكتب، فإذا به يكتب قصصاً ومسرحيات ومقالات وأشعاراً تخلب القلوب وتحرك الأفئدة .

●●●

تلك هى الجوانب الخفية من حكاية ذلك الفيلسوف الفنان ، الذى ظهر فجأة يدعو إلى العبث والانحلال والوجودية بأسلوب خلب به لب الشباب وامتلك عليه عقله ، ثم نادى بسقوط الشرائع وأعلن حرية الإنسان ، وأعلن حق الإنسان فى إشباع جميع شهواته والاستمتاع بجميع لذاته ما دامت برضى ودون

اغتـصـاب ، ونادى ببـدء عهـد جديد من الجـنة الأرضـية .. حـيث لا عمل للرجال الشطار إلا فض الأبكار وأكل الثـمار على شواطئ الأنهار .. وشعار الجمـيع .. عانق وانكح ما دامت تسمح .. وطالب بالجـهاد الجـديد الممتع وذلك بخـروج جيـوش من الرجال لغـزو قلوب النسـاء لاحتلال المخادع وافتراش المحارم .

وقامت القـيامة على الرجل وطالبت كل النظام برأسـه ، فخرج على الناس بهذه العصـا الخرافية التى يُسـقط بها المطر ، ويخرج البترول ويمشى على الماء وينتقل كـالبرق حيث يريد ويضرب بها فيحيى ويميت .

وقالوا هو المسـيخ الدجال الذى يظهر آخـر الزمان فيـدعو إلى الفسق والفجور والفساد ، ويؤيده إبليس بالخوارق .

وقالوا بل هو ابن الله الوحيد .

وقالوا بل هو الرب .

وصادفت دعوته هوى الكثرة وشهوات الجماهير فاتبعوه .

وجادله أولياء عصره فغالبهم وما غلبوه .

وغرقت الأرض فى الفسـاد إلا قليل ممـن لزموا بيوتهم وأغلقوا عليهم الأبواب اتقاء للفتن .

ثم شاءت رحمـة الله أن يظهر المسيح الحقـيقى فى مكة .. وأن يسلطه الله على هذا الـدجال فـيـقتله ويرسلـه إلى أسفل درجـات الجحيم .

وإنما تبدأ قصـتنا بعد مقتل الدجـال ونزوله إلى الدرك السابع من جهنم .. فننزل معه إلى هذا الدرك الملعـون .. لنرى ما كان وما سيكون من شـأن هذا الأفاك الأثيم فى هذا الجانب المحـجوب من عالم الآخرة .

●●●

مـر الدجـال فـى نزوله إلى قـرار الجـحـيم عـلى أبواب الجنة الثمانية ، ثم عبر وادى الأعراف بين الجنة والنار ثم هبط الدركات السبعة ليصل إلى أسفل سافلين .

وكانت الحكمة من تمريره على الجنة أن يشاهد بعينيه ما حرم منه فيزداد حسرة على حسرة وندماً على ندم .

رأى فى الجنة الحـور العـين وقصـور البلور التى تجـرى من تحتها أنهار من نور ، ورأى النخيل والأعناب والرمان ،ورأى بحر الكوثر وعـيـون السلسبـيل فـمـا وجد لما رأى وصـفـاً ولا نعتـاً ولا واتته حرفة الكلام ، فى أن يجد لمـا يشاهد تعبيراً .. وإنما هى أشياء تلتقى مع أشياء الدنيـا فى الأسماء فقط دون أن تقارنـها أو تقاربها .

ورأى القصـور فى الجنة يبنيهـا الملائكة بالحروف .. يـنطقون حروفـا بصيغ خـاصة فتـبرز تلك القـصور من عدم وتـقوم على قواعدها من لا شـىء ، وقد كستهـا حلل باهرة من الزخرف ، مما لا يخطر على بال فنان ولا يحلق إليه خيال مبدع .

ورأى أهل الجنة يتنقـلون عبـر المسـافـات بلا وسـائل .. وإنما

يطيرون بما فيهم من شوق ذاتى يحملهم بأسرع من الضوء إلى حيثما يريدون .

ورأى أبواب الجنة الثمانية وأعلاها باب الرضوان حيث يرى المشاهدون وجه ربهم ، ويكلمهم ربهم وينظر إليهم وتلك أعلى درجات النعيم .. وقد ضرب عليه العمى والبكم والصمم وهو يمر بهذا الباب فلم ير ولم يسمع شيئا لأنه محجوب .

وأدنى أبواب الجنة هو باب المآكل والمشارب والروضات والأنهار والينابيع ، حيث ترتع الظباء والفراشات والطواويس وحيث تغرد الطيور بأجمل ما سمع من موسيقى .. وأهل هذه الجنة يكلمون الفراشات والورود والأشجار فترد عليهم .

أما جبل الأعراف فمكانه بين الجنة والنار ، وقد رأى فيه المفكرين والمصلحين ممن بحثوا عن الحقيقة وسعوا إليها بإخلاص وعرفوا ربهم ، لكن قعدت بهم بشريتهم عن بلوغ الكمال الخلقى الواجب ، فوقعوا فى المخالفات وتساوت سيئاتهم وحسناتهم ، فأرجأهم ربهم إلى يوم يبت فيهم برحمته .

أما الجحيم ، فهى نار كبرى ليست كما نعلم من نار ، وليس بينها وبين نار الدنيا من تشابه إلا فى الاسم وما يكاد يدخلها الداخل حتى يضرب بينه وبين عالم الرحمة بسور لا مخرج منه .

ولهذه النار هزيم كهزيم الرعد ولها تغيظ وفوران وليس فيها بقعة ظل ، وأهل هذه النار يأكلون ويشربون ويتلاعنون ، ويقتل بعضهم بعضا فلا يموتون ونار أحقادهم الداخلية أشد مما هم فيه

من سعير ، وهى أحقاد وشهوات لا تخبو ، كما لا يخبو ما هم فيه من سعير إلا ليضطرم من جديد .

ومن أبواب هذه النار باب الزمهـرير ، حيث تتجمـد العيون فى المحاجر ، وتتجمد الأنفاس فى الصدور من شدة البرد .

ومن أبوابها باب الويل حيث تترصد الداخل النكبات فلا يقر له قرار ولا يهدأ له بـال ، فالسماء تتسـاقط والأرض تتزلزل ، والماء يغيض إذا طلبته ، والثمار تجف إذا مددت لها يدك .

وكلما كان صـاحبنا الدجال يبلغ بابا كان يقـول لمرافقه .. أهذا مقرنا .. فيـقول مرافقه وهو مالك كبـير ملائكة جهنم .. لا ، ليس بعد .. حـتى بلغ به إلى الدرك السابع وهو درك أسـفل السافلين ، وفـيه إبليس وجنوده والملاحـدة والمنكرون وعـباد الأوثان وأئمـة المادية الجدلـية ، والفراعنة الجـبارون وقـوم عاد وثمـود وقارون وهامـان ونيـرون وستـالين ومـاركس ولينين وهتلر وسـالازار ومونـجستو .

وأشار إليه قائلا : هنا مقرك .

وتلفت الدجال حوله فرأى بين الحضور وجها يعرفه .. فهمس لمالك .. أليس هذا هو صـاحـبنا الذى بنى السـد العالى .. قـال له مالك .. نعم هو بعينه وقـد افتتحه قائلا فى خطبـته ، اليوم نروى حـقولنا دون انـتظار لما تأتينا به السـماء من مـطر .. فأحـبط الله ما صنع وجاء المشروع نكبـة على الزراعة فى مصر بما سلب من طمى وبما أصـاب الأرض من نشع دائم .. وبما أصاب تيـار النهر

من ضعف عند مصبه فهجم الماء المالح على سواحل الدلتا ، فأتلف ألوف الفدادين ، وتآكلت الجسور وسقطت بسبب خفة الماء وانخفض منسوب النيل بسبب النحر الدائم للشطآن .. ثم جاءت الطامة الكبرى بالإغارة على السد ، فى الحرب العالمية الثالثة ومحاولة ضربه من الجو ، مما هدد بفيضان بحيرة ناصر وإغراق البلاد وهلاك الملايين .

قال الدجال : ولكن الرجل كان زعيماً ، قوياً وكان مهاباً وأعلى كلمة مصر أليس كذلك ؟

قال مالك : بل أعلى كلمة نفسه .. وقال أنا .. وسخر مصر لهذه الأنا وجمع حوله الجلادين والسفاحين وقطع الألسن ، وكمم الأفواه وألقى الأبرياء فى السجون ، وعذب الخصوم حتى الموت وضرب الطبقات بعضها ببعض ، وأشعل الأحقاد وانفرد بالكلمة آثما معتزا بإثمه إلى أن مات .

قال الدجال : لا يصح أن ننسى حسنات الرجل .. لا يصح أن ننسى له مجانية التعليم وتشغيل جميع الخريجين .. و ..

قال مالك : مجانية التعليم دون توسع مناظر فى عدد الفصول والمختبرات ، معناها عدم التعليم ومعناها تكديس الألوف دون أن تكون لأحد الفرصة فى أن يفهم شيئا .. وتشغيل الخريجين بدون إيجاد أشغال معناها البطالة لا العمالة .. لقد كان الرجل كذابا يتكلم عن الرخاء والبيانات تحت يديه تقول إن الاقتصاد تحت الصفر .. وكان يتكلم عن الكرامة وأرضه محتلة ، وكان يتكلم عن

الحرية والألسن مقطوعة والرقابة تركب الأكتاف .. ولقد أحبط الله كل أعماله ، فالأرض التى أخرج منها الإنجليز دخلها اليهود ، والقناة التى أممها ردمها ، والوحدة التى أعلنها انقلبت انفصالا ، والتحرر من أمريكا انتهى إلى الوقوع فى قبضة روسيا .. ومن عجب أن صاحبك الذى حارب فى الكونغو واليمن والسودان والجزائر وحرض كل الشعوب على تحطيم كل العروش . هذا الرجل حينما واتته الفرصة الذهبية للحرب فى مصر .. بلده .. انسحب .

– سوء حظ يا مولانا .. اجتهد الرجل فأخطأ .. خانه رجاله ..

– ومَنْ اختارهم .. أليس هو .. أكان زبانيته يلقون بالناس فى السجون ويعذبون الأبرياء ويهتكون الأعراض ويمثلون بالخصوم وهو فى غيبوبة .. هل خرج أكثر من ثمانين من القضاة مفصولين من وظائفهم تحت أنفه دون أن يدرى .. هل انسحب مائة ألف جندى دون أمره .. إنك تدافع عن الرجل لأنه كان مثلك ..

قال الدجال : مثلى كيف ؟

قال مالك : نعم مثلك تدعو إلى الله وتعصيه وتحمل رايته وتمزق منهجه عامداً متعمداً مدركاً لما تفعل .

– ولكنى كنت ضحيتكم .. لقد أرسلتم إلى إبليس فخدعنى .. وأجريتم على يدى الكرامات وأعطيتمونى عصا أمشى بها على الماء ، وأسافر بها إلى أقصى الأرض .

– لقد أعطينا كفاراً مثلك أقماراً صناعية ومراكب نزلوا بها على

القمر ، وسفناً ذهبوا بها إلى المريخ ، وهم الآن نزلاء فى غرف مجاورة .. إن الله يرزق المؤمن والكافر وهو يعطى كل سائل طلبه.. وحينما رأيناك تسجد فلا تطلب فى سجدتك إلا اللذة والغلبة أعطيناك اللذة والغلبة .. وأرسلنا إليك قرينك الذى يشبهك.. إبليس الذى لا يفكر إلا فى نفسه مثلك .

– أما كان ممكناً أن تنزلوا علىّ جبريل رحمة بى . فضحك مالك وهو يدفعه فى قفاه قائلا :

– إن بينك وبين جبريل ما بين الأرض والسماء .. جبريل نور وأنت نار .. ولا مجانسة بينكما فى شىء .. إنما يتنزل القرناء بعضهم على بعض بحكم المجانسة .. ولو تنزل عليك جبريل وكلمك لما سمعته لبعد الشقة ، واختلاف الذبذبة بينكما .. وقد كان الله يكلمك طوال العشرين سنة من العبادة المزيفة فلا تسمعه .. وكان إبليس يهمس إليك فتستجيب له بكل أعضائك ، وتزاول شهوتك وأنت ساجد .

– نعم .. نعم .. لا تذكرنى .. لقد فعلتها مرة وأنا ساجد فى الرحاب الأقدس فى النجف الأشرف بالعراق .

– نعلم ذلك .. وكانت هذه المرة هى التى رشحتك للزعامة التى أنت فيها .. فقد قالت الملائكة ساعتها .. هذا هو الدجال الذى يأتى آخر الزمان ، فلا يصلح إلا للعنة ولا تصلح اللعنة إلا له .

– وقد تنزل علىّ إبليس بعدها وتعاهدنا وأخذ علىّ الميثاق .

– نعم .. وما كان يصلح لهذه المنزلة السفلى غيرك .. وقد أطلع الله على سرك منذ البداية .

– ولكن ما ذنبى وقد خلق الله لى سرى الملعون هذا .

– إن الله لم يخلق لك سرك ولم يخلق لأحد سره .. بل خلق الله لك اليد والقدم واللسان ، والعقل والقلب لتعبر وتكشف عن سرك ومكنونك .. إنما سرك فيك منذ الأزل ومن قبل أن تولد ومن قبل أن تخلق – لم يمسسه أحد ولم يتدخل فيه .. إنما انفرد الله بالاطلاع عليه فحسب .

– وأين كنت فى الأزل ؟

– كنت فى هذا العالم .. كنت فى الجحيم بالإمكان ، وهذا أنت تعود إليه بالفعل .

– ألم أكن عدما ؟

– كنت عدما ولكن لم تكن معدوماً .

– لا أفهم .

– هذا ما تسمونه عندكم الوجود بالقوة والوجود بالفعل .. كنت حقيقة سفلية « بالقوة » ثم أفصحت وأبنت وانكشفت فى عالم الدنيا ، وبما أجراه الله عليك من بلاء وابتلاء ، فأصبحت حقيقة سفلية « بالفعل » وبذلك حقت عليك الكلمة .

– أما كان يمكننى الخلاص من سرى هذا أو إصلاحه ؟

– لو أنك سجدت لله مخلصاً وتوجهت إليه صادقاً طالباً أن يطهرك ويصلح سرك .. لأصلحك الله وغيرك . والله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ولكنك لم تطلب ذلك أبدا .

- نعم .. بل كنت أتلذذ بهذه النار فى داخلى ، وأمدها بخيالى وتمدنى بحرارتها فلا يشبع بعضنا من بعض أبدا .

- نعم لقد اخترت النار حقاً وصدقاً وعدلاً فجعلها الله من نصيبك .. ولا يظلم ربك أحدا .

وراح الدجال يتلفت حوله ثم قال وهو يشير إلى رجل طويل :

- أليس هذا هو الرفيق ثقيل الظل باناماريوف عضو اللجنة المركزية بالاتحاد السوفيتى ؟

- نعم هو بعينه زميلك فى زنزانة الأبدية التى ستحل ضيفاً عليها .

- أعوذ بالله إنى لا أطيقه .. إن صحبة زبانية الجحيم أرحم منه.

- ولهذا اخترناه لك .

- إنه رجل لا يكف عن الكلام .. ولا يفهم حرفاً مما يقوله ولا يشعر بما يقوله .. ويظل يطاردك بالسخافات حتى تفقد عقلك .

- هلا عرفتكما ببعضكما .

- أرجوك يا مالك .. أقبل يديك ورجليك .. ألقنى إلى النار الذرية ... ولا تلق بى إلى هذا السخف المطلق .

- حسنا .. لم يأت وقت الزنزانة بعد .. ولا داعى للعجلة وأمامنا جولتنا .

قال الدجال مسترحما :

– ألا يمكن أن أرافق نجوى فؤاد أو سهير زكى .. أو حتى شريفة فاضل .. بدلا من هذا التيس ثقيل الظل .

– ياه .. هذا تواضع كبير من الشيطان العتل الذى دوخ العالم « المسيخ الدجال » بلحمه ودمه أن يتصور نفسه فى مستوى كباريهات شارع الهرم .. ظلمت الفتيات والله .. ومَنْ يدريك ربما يكون الله قد ختم لإحداهن بتوبة وقبل منها عملا صالحا تغير به مصيرها .

– نعم لقد ذكرتنى .. لقد رأيت منيرة المهدية فى الجنة ونسيت أن أسألك .

– تلك امرأة استحقت من الله الرحمة ، فقد عاشت إلى أرذل العمر . وانتكس حالها ففقدت صوتها وجمالها ومالها ودولتها وصبرت على بلاء الشيخوخة ، وتابت إلى الله توبة نصوحا .. والله يقبل توبة التائبين .

– ولكنى رأيت زناة سكيرين فى الجنة ، كما رأيت زناة وسيكرين فى النار ، ولم أفهم كيف افترقت بهم المصائر مع أنهم ارتكبوا نفس الأفعال .

– هؤلاء مذنبون من أهل الانكسار وأولئك مذنبون من أهل الإصرار .. أما أهل الانكسار فبكوا وندموا وتابوا ، وأما أهل الإصرار فتمادوا وأصروا وكابروا .. وهناك زناة أسوأ اتخذوا الزنى تجارة ، ثم هناك أسوأ من ذلك الذين اتخذوا الزنى مذهبا

يروجون له عـلانية ثم هناك الأسوأ من الكل الذى افـترى على الله كـذباً وادعى بـأنه أباح الزنى .. وقـال لكل مَـنْ يراه .. لا عليك .. أذهب فقـد رفع الله عنك الحرج .. عـانق وانكح ما دامت تـسمح .. وذلك هو سيادتك .. وهكذا ترى أن الذنوب منازل .

قال الدجال : هلا طلبت منك خدمة بالله ؟

قال مالك : ما هى ؟

- أن تقـابلنى بإبليس الذى خـدعنى وأوردنى المهالك لأصـفى معه الحساب .

قال مـالك : إنا ذاهبان إليـه بالفعـل .. والعجيب أنـه هو الآخر يطلب رؤيتك .

لقاء مع الشيطان

كان الطريق إلى الشيطان ينزل عدة درجات عبر ممرات حلزونية مظلمة ، إلى ساحة مبطنة بالجمر الملتهب ..والأرض كلها مفروشة بالجمر ، ويخرج من الجدران والأرض وهج أحمر مخيف ..

وفى وسط الساحة وعلى عرش من نار يجلس إبليس وهو نفسه قبضة من جهنم .. كل شىء فيه .. عيناه .. جبهته .. يداه .. جلده .. أنامله .. كلها تشع نارا .

وقام الشيطان حينما رأى الدجال وأسرع إليه وعانقه بشدة حتى صرخ :

– أعوذ بالله .. هذا حريق وليس عناقاً ..

فقال الشيطان :

– هذا هو الكى الشافى الذى تستخدمونه عندكم لعلاج الكبد

والطحال والروماتزم .

– متشكر .. لست أشكو من الكبد ولا من الطحال ولا من الروماتزم .. والجمر عندكم يكوى المفاصل بما فيه الكفاية .. يا حفيظ هذا المكان لا يطاق .

– صدقنى هو أفضل بكثير من الزنزانة المخصصة لك مع زميلك باناماريوف ، فقد اختار لك الله موقعا فى الجحيم أسفل من مكانى ..

– أنا أسفل منك ؟

– بكثير .. صدقنى .. أنا وجنودى وجيشى هواة مبتدئون بالنسبة لسيادتك .. نحن شياطين ديكور .. شياطين ورق ، بالنسبة لمكرك العظيم وعلمك العظيم فى فنون الشر .

– أنت .. أنت إبليس الزعيم تقول هذا الكلام .

– وأكثر ..

– أنت الذى خدعتنى ومكرت بى وأوردتنى هلاكى .

– يا شيخ .. هل تريد أن تفهمنى أنك صدقت أنى أنا الله رب العالمين .

– طبعا صدقت ولهذا أطعتك .

– وهل هناك رب يطلب من عبده أن يترك الصلاة والصوم والعبادة ، وأن يزنى وأن يأكل مال الغير ، وأن يدعو إلى الفجور

والفسق علناً .. إزاى ..

– لقد قلت لى إن هذه هى الشريعة الجديدة فصدقتك .

– فى شرع أى عقل وكيف يجوز مثل هذا الكلام على إنسان ؛ بل على حيوان .

– لقد قلت لى أنا الله .

– لقد كنت تعلم أنى أهزل .. وقد فهمت بفطرتك كل شىء من أول لحظة ، ولكن الحكاية استهوتك وجاءت على مزاجك وأعجبتك اللعبة فسايرتنى حتى آخر الشوط .

– والعصا السحرية التى ضحكت بها علىّ .

– إن عصا أصغر منها من عصيكم مركب فيها مخ الكترونى تستطيع أن ترسل صواريخ تعبر الفضاء وتتحكم فيها وتوجهها.. وأنتم بعلمكم تنقلون قلوب الموتى إلى الأحياء .. فما هى تلك العصا التافهة بالنسبة لمنجزات العلم البشرى .. إنما هى لعبة .. وقد فهمت بمكرك أنها لعبة .. وأردت أن تضحك بها على الناس ..صدقنى إنى أشعر بالخجل من تخلفنا الشيطانى فى فنون المكر .. لقد سبقتمونا كثيرا .. ولقد سبقتنى بدرجة هزت ثقتى بنفسى ، وهزت مركزى أمام القيادات الشيطانية ، لدرجة كادت تدفعنى إلى الاستقالة .

– إلى هذه الدرجة ؟

– نعم وأكثر فنحن فى عصرك وبفضلك أصبحنا جيشا من الشياطين العاطلين .. أشبه بجيش التشريفة الذى يمشى خلف الجنازات بلا عمل .. فماذا تجدى فنوننا التقليدية مع أساليبك الجهنمية ، إن أقصى ما كنت أستطيعه فى مسألة الإغراء الجنسى أن أرسل جنودى يوسوسون للناس بالخواطر الشهوانية .. أما أنت فماذا فعلت .. لقد أنشأت محطة خاصة للأقمار الصناعية تذيع لجميع أجهزة التليفزيون .. الأوضاع الثمانية عشر للعملية الجنسية .. وقلت فى مقدمة هذه السلسلة .. إنك تقدمها خدمة للعالم وكدراسةٍ أكاديمية ليستفيد منها الأزواج فى تحصيل اللذة بأفضل وسائلها .. وطبعا أنت تعلم أنه لم يتابع هذه السلسلة إلا المراهقون .. أما الأزواج فكانوا يغلقون أجهزة التليفزيون بسبب الملل الذى يعيشون فيه .. وهكذا فسد الجيل كله وأصبحوا مثل قرود الجبلاية .. كل شاب مشغول بعضوه التناسلى ..

ولم تستطع الرقابة أن تتحكم فى الأمواج التليفزيونية فى الهواء . ولم تستطع أن تمنع هذا الفيض من الفحش الذى كان ينتشر عبر الفضاء بلا موانع .. أين نحن من هذه الأساليب .. لقد انتهينا يا مولانا .. لقد جاءنى شيطان صغير منذ شهور كان يعمل فى قسم التهريب ، فقص علىَّ قصته ثم انتحر .. فماذا تظن كانت قصته ..

– ماذا كانت ؟

– كان مكلفا بمرافقة أحد المهربين المحترفين .. وكان صاحبنا

هذا يفكر فى تهريب مليونِ جنيه سرقــها من أحد البنوك ، واقترح عليه الشيطان أن يدفنهـا فى الأرض مدة حتى تنسى الحادثة ، ثم عاد فاقترح عليه أن يهربها فى صــناديق الفاكهة . ثم عاد فاقترح عليه أن يضعها فى أنبوبة العادم فى سيارته الشيفورليه .. أو فى كيس بـلاستيك فى خـزان البنزين .. ولكن صــاحبنا ابتســم لهذه الاقتراحات الساذجة وأشاح بيده فى عدم مبالاة .. ثم ماذا فعل .. اشترى بالمـليون جنيه طابع بريد تذكاريا نادرا .. ثم وضــعه على خطاب عــادى وأرسله تحت أعـين جـميع الشـرطة والمخـابرات .. وانتحر الشيطان غماً .

أما الحادثة الثانية، فكانت لشـيطان آخر يعمل فى قسم تهريب المخـدرات ، وكـانت المـشكلة هى تهـريب عــدة أطنان من مــادة L.S.D ومعـلوم أن مللى جرامْ واحـد من هذه المادة يكفى لتخـدير أسرة ، وفكر الشــيطان الذكى وفتح ذهنه ، ثم اقـترح تهـريبه فى زجاجات الملح ، ثم عاد فاقترح تهريبه مذابا فى برطمانات المربى.. ثم عاد فاقترح تهريبه مذابا فــى زجاجات المياه المعدنية .. واستمع المجرم المحترف إلى كل هذه الخواطر الشيطانية ، ثم أزاحها جانبا وفكر فى وســيلة جهنمـيــة .. أن يضع المادة المخدرة فى الصــمغ اللاصق فى خطابات المـعايدة والتــهنئــة .. ومــا على المدمن إلا أن يلحس الصمغ الــلاصق بلسانه فيـحصل على الجرعـة المخدرة .. يومها جاءنى ذلك الشيطان وظل يلطم وجهه حتى فقأ عينه .

وهل يخطر لشيطان مــهما بلغ من القسوة أن يــعذب بريئاً فى

سـجنه ، فـيكوى جـلده وينزع أظافـره وينفخ بطنـه ويعلقـه من قدمـيه ، ويضـع الخوازيق فى الأمـاكن الحسـاسة من جـسده ، ويطلق عليـه الكلاب ويهـدده بالملابس الداخـلية لـبنته وزوجـتـه ليجـبره على الاعتـراف .. كما فـعلت عصابة صـاحبكم الذى بنى السد العالى..

.. يا مولانا أنتم لم تتركوا لنا فناً إلا سبقتمونا فيه .. وكان رب العزة والجلال على حق حينما طـلب منا السجود لآدم .. فهنا كان جنس من المخلوقات إذا أراد الشـر تفوق شره على الجـميع . وإذا أراد الخير تفوق خيره على الجمـيع .. لقد كان يجمع القدرات كلها فى يديه بحكم النفخـة الربانية .. ولكننا لم نفهم الحقيـقة حينذاك وغلبنا كبرياؤنا وغلبتنا شقوتنا وحقت علينا اللعنة ..

ولكن اليوم لابد من وقفة صراحة ..

ولا يمكن الاستمرار فى الكذب إلى الأبد ..

لقد قـررت الاستقالة من زعـامة الإفساد وتسليـمك خاتم الملك ووضع جنودى فى خدمتك .. وهذا عـرش النار تقدم واجلس عليه واحكم دولة الظلمات ..

أما أنا ، فـها أنا أسجد لك بعد فوات الأوان :

وسجـد الشيطان لآدم الشـر والفتنـة « المسيخ الدجـال » بعد مليـون سنة من الإباء والكبـرياء ، ووقف الدجـال مأخـوذاً لحظة

مختالاً بهذا التسليم الفجائى ، ثم عاد يربت على رأس إبليس مغمغماً :

– قم يا صديقى المسكين اجلس على عرشك .. لم يعد فينا منتصر ولا مهزوم ولا حاكم ولا محكوم ، بل نحن جميعا الآن فى القبضة الإلهية .. ولقد خبنا جميعا وخاب سعينا .. وإذا كان لى رجاء فهو رجاء واحد .

– اطلب وأنا فى خدمتك .

– أن تخلصنى من هذا التيس الروسى باناماريوف .. أرجوك .. أقبل يديك وقدميك .. خذه يعمل عندك فى قسم الإلحاد.. إنه داعية مفيد جداً .. خذه فى فرع المادية الجدلية إنه متخصص لا يشق له غبار .. خذه فى ستين داهية إنه رجل لا يطاق .. إنه إنسان آلى بدون مخ.. كلامه يرفع ضغط دمى .. نبرة صوته الخشبية بتعمل لى تصلب شرايين .. أنا فى عرضك .

فقال إبليس وقد أسقط فى يده :

– هذا أمر ليس فى يدى .. ألم تسمع الصوت الذى ارتجت له السموات .. « لـمَنْ الملك اليوم » وكيف أجاب الملائكة فى صوت واحد .. « لله الواحد القهار » يا سيدى لم يعد لنا حكم اليوم ولا تصرف .. وصحبة هذا الباناماريوف صدرت عليك منذ الأزل .. ولا رحمة ولا استئناف .

– ولكن صحبة هذا الإنسان الحجرى عذاب لا يطاق .

– وهل يراد لك الآن إلا العذاب .. وهل ينتظرك إلا البؤس الأزلى .. وأنت الذى غلبت الأبالسة ..

– صدقت .. لا مفر .. الأمر لله ..

ولكنه عاد فقال فى أمل :

– ولكن ألا يمكن أن ألتقى بعبد الحليم حافظ أو أم كلثوم لأروح عن نفسى قليلا فى هذا الغلب .

فقال مالك : إن عبد الحليم رجل غلبان والله عفا عنه بما أصابه من بلاء المرض فى حياته ، وأم كلثوم دخلت فى حساب الذين خلطوا عملا سيئا وآخر صالحا عسى الله أن يتوب عليهم ..

ولكن عندنا مارلين مونرو إذا كان مزاجك اليوم فى أهل الفن والطرب ، ولكنها فى الدرك الثالث من جهنم فوقك بأربع درجات ، ولا يمكن أن تصعد إليها ولا أن تنزل هى إليك وأنت أسفل السافلين.

– ألا يوجد فى أسفل سافلين أحد من الفنانين أو المطربين أو الملحنين .

– هناك بعض كتّاب المادية الجدلية والفلاسفة الدجالين والمؤلفين الذين احترفوا إفساد الناس عن عمد وعن قصد .. وهناك العملاء الذين روجوا الباطل للكسب والإتجار .. وهناك الطغاة والجبارون .. وهناك السفاحون الذين عذبوا الأبرياء فى السجون مثل الروبى وحمزة البسيونى ، أما الفنانون بمعنى أهل الفن

الجميل فهؤلاء مرحومون بحكم اجتهادهم ، فى إبداع كل جميل والكفرة والفساق منهم نجدهم فى الدرجات الأولى والثانية والثالثة من جهنم ، وذلك تخفيف من رب العزة على كل مَنْ أبدع جميلا فى الحياة .. ومن أهل أسفل سافلين أيضا اليهود الذين حرفوا التوراة والإنجيل وأخفوا الآيات واستبدلوها .. وزوروا وابتدعوا وافتروا على الله الكذب .. ومنهم قتلة الأنبياء .. ومنهم السحرة الذين أغووا الناس بسحرهم وعبدوا الجن والشياطين .. ومنهم السامرى الذى صنع العجل الذهب وأضل به قوم إسرائيل .. ومنهم النمرود الذى ألقى بإبراهيم فى النار .. ومنهم الجبارون الذين أحرقوا النصارى فى الأخدود .. وفيهم هولاكو وهتلر وستالين وكل عمالقة التخريب فى العالم ، وفيهم منجستو الذى قتل ألف طالب فى يوم واحد ..

– أعوذ بالله .. دى جيرة مهببة .

– صفوة الشر والبغى فى التاريخ .

– الله يطمنك .

– شد حيلك .

– يبدو أننا لن نعرف السلام هنا أبداً .

– لا سلام هنا ولا راحة ، وإنما حرب أبدية وقتال أزلى بلا غاية وبلا هدف ، ودون أن ينتصر فريق على فريق .. وإنما الكل يعذبون بعضهم بعضاً بحكم طبائعهم .

- يا حفيظ .

- إنما السلام فى دار السلام .. حيث النفوس من نوع آخر .. نفوس مشغولة بالحب وبإعطاء الحب .. وبتبادل الحب .

- ألا يمكننى أن أتسلل إلى واحة الحب هذه فى غفلة من الحراس .

- لن تستطيع أن تعيش هناك لحظة واحدة، فأنت نفس مختلفة من نوع مختلف .. إن لذتك فى الدجل والمكر والشر والاختلاس والسرقة والاحتيال والإيذاء .. ولو خرجت من الجحيم سوف تصبح مثل سمكة خرجت من الماء .. إن مكانك هنا .. وقدرك أن تقارع الأشرار مثلك ويقارعوك وتقاتلهم ويقاتلوك ، وتحسدهم ويحسدوك وتخونهم ويخونوك وتحقد عليهم ويحقدوا عليك وتغدر بهم ويغدروا بك .. ولا نهاية لهذه الدائرة المفرغة من الشر؛ فهذه حقائقكم ولا تستطيع نفس أن تعطى غير حقيقتها ولا يمكن لإناء أن ينضح إلا بما فيه .

- ألا يمكن أن يعطينا ربنا فرصة أخرى لنتوب ونعمل صالحا.

- لو ردك ربنا إلى الدنيا لعاودت نفس سيرتك، فهذه حقيقتك وهذا سرك .

فصرخ الدجال :

- وما ذنبى أنا إذا كان الله خلق لى سرى هكذا .

فعاد مالك يشرح له :

– حانرجع تانى للكلام الفارغ .. لقد قلت لك يا رجل إن الله لم يخلق لك سرك ولم يخلق لأحد سره ، وإنما خلق لك الله اليد والقدم والقلب والعقل ، لتعبر عن خيرك وشرك وتكشف مكنونك وسرك الذى تخفيه .

– وما هو سرى الذى أخفيه ؟

– ذلك هو سرك الخاص بك لم يخلقه فيك أحد ولم يقهرك عليه أحد ، وإنما هو طويتك ومكنونك وحقيقتك منذ الأزل ؛ وقبل أن تولد فأنت من سكان هذا المكان منذ الأزل .. حينما كان هذا المكان عدما وكنت عدما ولكن فى باطن العدم لا تخفى على الله الخفايا ولا تستتر عنه النوايا . .

– اختصار القول إنه لا فائدة ولا مهرب ولا مفر .

– إذا كان لك مهرب من نفسك ، فإن لك مهربا من هنا .

– حسنا .. سلمت .. واستسلمت .

– ذلك عين الصواب .

– ولكن لا بأس فى البلوى من سلوى .

– ماذا تعنى ؟

– أقول ما رأيك أن نبحث عن شلة الحرافيش لابد أنهم شركاء فى هذه المصيبة التى نحن فيها .

– مَنْ هم شلة الحرافيش .. تقصد شلة نجيب محفوظ .

- هو بعينه ما قصدت غيره .

- لقــد ظلمـت الرجل يا شــيخ .. ولا أظن أنـه سـيكون من جيرانك .. فهو رجل طيب وإن كانت مآخذنا عليه كثيرة ..

- وما هى تلك المآخذ ؟

- والله يا أخى صاحبكم عجـيب الأحوال تراه فى حياته يصلى ويصوم ويلـتزم بالآداب والوصايا ، ثم تـقرأ كتـبه فـلا تجد أثرا لوجود الله ، وإنما تطالع عـالمًا ماديًا يأكل بعضه بعـضا .. وتغرق فى ظلمـة من الشرور والمظالـم .. ليس فيـها بصـيص نور .. فى روايته «الطريق» ترى الله عبـارة عن أب وهمى لا وجود له ، وفى روايتـه «أولاد حـارتنا» يمـوت الله فى آخر الروايـة ويجلس العلم والعقل فى مكانه ، وفى قـصة «الغرزة» يكتشف الحـشاشون فى الصبـاح أن الشبح الذى تصوروا أنه كان يتـربص بهم على الباب كان عباءة معلقة أو جوال قطن لست أدرى ، ثم هو يأخذ القارىء إلى دوامة من الانفعال الرافض بدرجة تدفع به إلى الغضب المبهم، وإلى الرغـبة فى تهـديم كل شىء .. ثم هو لا يفصح عـن موقـفه ولا يقترح حلا ولا يعلن أيديولوجيـة معينة ، وإنما هو يبدو دائما غاضبا على كل شىء ؛ وأصدق قصصه فى التعبير عنه هى قصة ذلك الرجل الذى يصعد على أعلى نقطة فى برج القاهرة ، ثم يطلق الرصاص على الناس من مدفـعه الرشاش بطريقة عفويـة موجها الموت إلى الكل .. ووجه العـجب فى صاحبكم وما يدعـوننى دائما إلى التسـاؤل كلما قـرأته .. إنه إذا كان يصلى ويصـوم وإذا كان

اقتنع بالدين منهجا وحـلا ، فلماذا لا يبدو هذا الحل فى رواياته .. ولماذا يبـدو الدراويش فى رواياته هلافـيت .. وتبـدو المومـسـات بطلات واللصوص ضحايا .

هذا رجل عجيب صاحبكم نجيب محفوظ هذا .

– وماذا تظن آخرته ؟

– العبرة بالخواتيم .. ولا نرى بماذا ختم له .. ولعله تاب وأناب وأقلع عن هذه السكة البطالة التى كـان يسير فيهـا ولعله فى آخر مؤلفاته قد قال شيئا آخر .

– يبقى شىء عجيب .

– ما عجيب إلا الشيطان .

وسكت الدجال فـترة ، وغـرق فى التفكير ثم أشـار إلى إبليس من طرف خفى .

ومال الاثنان بعضهما على بعض يتهامسان .

قال الدجال :

– اسـمع يا أخى يا إبليس الظاهر أن الحكاية جـد وأن مفـيش فايدة .. وأننا ضعنا ..

– ضعنا الضيعة التى لا بعدها ولا قبلها .

– اسمعنى لم يبق إلا حل واحد .

– ما هو ؟

قال الدجال فى صوت خافت مبحوح : الثورة .

همس إبليس فى دهشة وقد فغر فاه : أى ثورة .

فقال الدجال فى صوت جاف أجش : ثورة اشتراكية .

وهنا انفجر إبليس ضاحكا .. ثم تكور وانتفخ من كثرة الضحك حتى تحول إلى بلونة هائلة ، ثم راح ينفجر ويقرقع بالضحك . حتى سمعت ضحكاته الشيطانية فى السماوات السبع والأرضين السبع والكون السفلى والعلوى .. وما بقى مكان فى الفلك إلا وسمعت فيه ضحكته الشيطانية .

قال الدجال مذهولا : وما الذى يضحكك إلى هذه الدرجة يا إبليس ؟

قال إبليس وهو مازال يحاول أن يكتم ضحكه : ثورة اش .. اش .. اش .. اشتراكية الله يضحكك يا شيخ .. ماذا تقول فيها .. نريد الخبز .. نريد الحور العين ..

قال الدجال : بل نقول تسقط الطبقية والاستغلال .

قال إبليس : استغلال مَنْ .. إن أهل الجنة لا يستغلونك ، وأنت لا تعمل عملا لتدعى أنهم يأكلون أجرك ، ثم يبنون قصورهم من فائض القيمة .. استغلال مَنْ .. أنا لا أفهم .

فقال الدجال غاضبا : إن الله قد أخذ أرضى.. أخذ ألف فدان من

أجود الأرض فى الفيوم .

فقال إبليس وهو يضحك : أرضك .. ألك أرض .. إنها كلها أرضه .. السماوات والأرضين ملكه .. والبحار والأنهار والأشجار والرياض والجبال والوديان ملكه ، والشمس ملكه والقمر ملكه والمخلوقات كلها ملكه .

قال الدجال : وهدم لى عمارة من عشرين دورا فى باب اللوق ، كانت تدر علىّ دخل عشرين ألف جنيه فى الشهر .. هدمها بزلزال .

قال إبليس : إنه حر فى ملكه يهدم فيه ويبنى ويزلزل ويميت ويحيى كما يشاء .. أله شريك فى ملكه يقيم عليه دعوى إتلاف .

قال الدجال : أنا عندى حجة مسجلة فى الشهر العقارى بالأرض والعمارة .

وهنا انفجر إبليس فى ضحكة شيطانية أكثر جلجلة من الأولى وراح يتشقلب مثل البهلوان .

ولم يتمالك كبير ملائكة جهنم « مالك » خازن النار نفسه ، فضرب الدجال ضربة على بوزه أطاحت بجميع أسنانه دفعة واحدة .

وانكمش الدجال من الألم حتى أصبح أصغر من الجرذ ..

ثم عادت أسنانه فنبتت كلها من جديد .

وقال إبليس : إن حكاية الثورة الاشتراكية سوف تكلفك كثيرا .. فإن جهاز المخابرات هنا دقيق ولا يمكنك أن تتهامس بمؤامرة ، أو تهرب منشورا أو تضحك على الناس بأضاليل كالتى كنا نضحك بها عليكم فى الدنيا .. فإن الجدران تسمع والشجر يتكلم ، ويدك تعترف عليك وقدمك تعترف عليك وقلبك يعترف عليك .. إن الشيوعية كانت لعبة الأبالسة فى الدنيا كلما أرادوا أن يؤلبوا الناس بعضهم على بعض ، وكلما أرادوا أن يشعلوا الأحقاد ويشتتوا الشمل .. كانت الاشتراكية هى الكلمة التى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .. ظاهرها العمار وحقيقتها الخراب .. وكانت هى العالم الملتوى من الكلمات الذى يضل فيه الحكيم ويتوه فيه اللبيب .. وذلك كان بعض مكر ذلك الماكر الكبير كارل ماركس الذى أوقع العالم كله فى خيوطه العنكبوتية .

قال الدجال : وهل وقع العالم كله فى الشيوعية ؟

قال مالك : نعم فى ختام الزمان عاد العالم كافرا كما بدأ كافرا .. واكتسحت الشيوعية العالم ، ووقف المؤذن ليقول على المئذنة : لا إله .. ثم يسكت .. ولا رسول ثم يسكت .. ورفع الله الرحمة من الصدور ورفع القرآن من القلوب .. وازدهر العلم .. وخيل للإنسان أنه قد سيطر على كل شىء ، وبلغت الأرض غاية زخرفها وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، وراح الإنسان يستمتع فى حرية وبلا وازع من حرام ويستحل كل شىء .. حينذاك أتى أمر الله بغتة فجعلها حصيدا كأن لم تغن بالأمس .. الأرض

تخسف والجبال تنسف والبحار تتفجر .. والقبور تتبعثر .. ويسجد الناس ويبكون ويدعون بلا جدوى .. وتقتل الشعوب زعماءها الذين أضلوها .. ثم يقتلون بعضهم بعضا ، ويحرقون جثمانِ لينين المحنط فى الكرملين .. ويلعن الواحد منهم نفسه .. وكنت ترى الناس سكارى وما هم بسكارى حينذاك أتت نفخة الصور .. فصعق من فى السماوات والأرض إلا مَنْ شاء الله من أحبابه المقربين .

قال الدجال وهو يرتجف : ومتى كان ذلك ؟

قال مالك : تلك كانت الساعة .

– معنى ذلك أن الشيوعية كان لها ختام الكلمة .

– نعم لأنها هى التى تكفلت بالإفساد الشامل .

– إذن هناك أمل ..

قال إبليس : فى ماذا ؟

فغمغم الدجال هامسا : فى الثورة الاشتراكية هنا فى الآخرة .

فقال إبليس فى استغراب : تانى .. وهل فى الآخرة غير الله رب العالمين أيها المعتوه .. وهل فى يومنا هذا حكم لأحد غير حكمه .. يا راجل افهم .

قال مالك ساخرا : على العموم ما دامت قد اختمرت فى رأسك الفكرة .. فهذا أنسب وقت لتلتقى فيه مع الرفيق باناماريوف

واتفقا معا على الخطة .

قال الدجال متوسلا : لا ، أرجوك .. كله إلا باناماريوف .. أرجوك أقبل يديك وقدميك .. أقبل رأسك .. وأتوب .. وأرجع فى كلامى .. لا اشتراكية .. ولا شيوعية ..

ولكن مالك كان قد بدأ يجره من رأسه ويكبه على وجهه فى جهنم ساحبا إياه كالدابة إلى زنزانته .

وكان الدجال .. يصرخ :

– الرحمة .. الرحمة .. ارحمونى .. تبت ملعون أبو الشيوعية .. طبقية طبقية .. زى ما أنتم عاوزين .. بس سيبونى .. يا مغيث .. يا لطيف ..

زهـرة الرنـد

وألقى مالك بالدجال على وجهه فى الزنزانة .

وسمع الدجال مَنْ يقول له :

– أهلا بعميل الإمبريالية الأمريكية .. أهلا بالرجعى المأفون ..

فعلم الدجال أنه وصل إلى باناماريوف .

وتحمل على نفسه وقام واقفاً .

وكانت الزنزانة شيئا رهيبـا .. فسقف الزنزانة هو أسفل عرش إبليس حـيث تتدلى قـدماه وهـو جالس .. قـدم منهمـا على رأس الدجال والآخر على رأس باناماريوف .

وما تلبث الرأس التى يستقر عليها هذا القدم الجهنمى أن تغلى وتفور ؛ فقدم إبليس مثل كل جسمه بضعة من نار .

ولهذا ما لبثـت رأس الدجال أن بدأت تغلى ثم بدأ دمه يغلى ثم بدأ يصاب بالجنون .

ولم يتوقف باناماريوف عن الكلام لحظة ، وكأنه ماكينة مركب عليها أسطوانة قديمة لا تكف عن الدوران .. وظل يدمدم بصوته الخشبى :

- إن الجماهير الكادحة وطبقة الشغالة التى تعيش ضحية الاحتكارات ، وتراكم رأس المال وتدفع حياتها لتعطى الرأسمالى فائض القيمة ، الذى يصنع به مزيدا من الاحتكارات .. إن هذه التناقضات الديناميكية تؤدى إلى انهيار البناء الفوقى للتركيب التحتى للمجتمع البورجوازى . إن الفهم اللينينى للخلفية الجدلية يكشف هذا الاستغلاق الاستبطانى للاستشكال الوضعى للشرعية البروليتارية للمنظور الديماجوجى .

- إيه يا بنى الكلام اللى بتقوله ده .

- هذا هو الفصل الرابع من كتاب التوعية الشيوعية فى العالم الثالث لبولجاكوف .

- توعية إيه وهباب إيه .. إنك تقضى على الشيوعية قضاء مبرما بهذا الهراء .. الشيوعية لم تنتشر فى بلادنا بهذه المنشورات، وإنما انتشرت كوعد كاذب للمحروم بأنه سيملك ويحكم غدا . وانتشرت لأنها صادفت هوى الشباب الذى يريد أن يستريح من تكاليف الدين ومن عبء الحلال والحرام .. كما انتشرت بين الشباب المثالى الرومانتيكى ، لأنها قدمت له الحلم الذى يحلم به بالموت فى السجون فى سبيل الشعب ، فدفع حياته فى سبيل هذا الوهم الكاذب .. إن قصة الشيوعية فى العالم الثالث

هى قصة تحريض الجياع على الشبعانين .. وهو أمر سهل ويمكن أن تجمع به أمة ، وتقود مظاهرة وتسقط نظاما .. بدون هذا الهراء .

اسمعنى واترك هذا الكلام الفارغ .. وتعال معى وسنخطط معاً انقلاباً شيوعياً يغير حكاية الآخرة كما غير حكاية الدنيا ..

ولكن باناماريوف ظل فى واديه الآخر يردد بصوته الخشبى :

– إن التراكم الديناميكى للتناقضات الجدلية لأمور التشغيل فى الوضع المتدهور للمجتمعات البورجوازية الحالية ، يؤذن باستفحال المضاعفات المركبة للبنية الفوقية للعلاقات المتداخلة ، للهيكل المتخارج للتكوين الابستولوجى للشرعيات المقننة للترابطات فوق التحتية .

– يا نهار أسود وأنا حاعيش طول حياتى فى الوش ده ..

– وكما يقول لينين فى نهاية الإمبريالية : إن الهلامية الميتافيزيقية ، والتصورات الخاوية للعقلية المنغلقة الانفرادية الذاتية والشييزوفرينية الانتكاسية للخيالات الطوباوية .

– يا نهار أسود .. أنا حاعيش حياة أبدية تحت كابوس من الهراء .. مستحيل .

وكان ضغط دمه قد أخذ يرتفع ، ثم يقفز متلاحقا فى الارتفاع وراح نافوخه يغلى ثم يفور .. وباناماريوف ما زال يدق على رأسه بهذه النبرات الخشبية . حتى خيل إليه أن ذلك الصوت الخشبى يتخلل كل خلية ، وينخس فيها ثم ينخس فى عظامه ..

وأخيرا انفجر فى صرخة هائلة مدوية :

– يا هوه .. يا شـياطيـن .. يا زبانية .. الرحـمـة .. الرحمـة .. الرحمة .

ورفع إبليس إحـدى قدميـه .. تلك القدم الجـهنمية الـتى كانت مـسـتـقـرة على رأسه .. فـخف الغليـان قليـلا .. والتقط الدجـال أنفاسه ..

وجاء مـالك وزبانيته يحمـلون مائدة طعام وشراب قـال مالك مبتسما :

– ماذا دهاك .. عطشان ؟ .. جوعـان ؟ .. خذ اشرب عندنا زفت مغلى .

– هات متشكر .. أحسن ألف مـرة من هذا السرطان الذى كان ينخس فى نافوخى ..

– تأكل ؟!! .. عندنا شوك .. وحنظل .. وعلقم .. وزقوم .

– هات بارك الله فـــيك .. هل عندك سـم من الذى قـتلـتم به عبدالحكيم عامر ؟

– عندنا جمـيع السموم التى تخطر عـلى بالك .. ولكنك سوف تأكل منها عدة أطنان ولا تموت ، وإنما تتعذب فقط ..

– أعوذ بالله .. أليس عندكم مخدرات ؟

– هذا عالم تذكـر وليس عالم نسـيان كلمـا امتدت بك الحـياة

ازددت صحوا .

– يا حفيظ .. إذن كيف يغيب الإنسان عن وعيه ؟

– لا سبيل إلى ذلك أبدا .

ولكن يمكننى أن أقطع رأسى بهذه السكين .

واختطف السكين من مائدة الطعام وأخذ يجز رقبته ..

فقال مالك :

– لا تتعب نفسك . سوف تنمو رأسك ثانية كما كان يحدث عندكم فى أفلام ميكى ماوس .. ولن تزداد إلا عذابا .

وصرخ الدجال :

– إذن كيف الهرب من ذلك الـ باناماريوف ؟

وكانت بطنه قد بدأت تنتفخ من كثرة ما أكل من زقوم وبدأ يتلوى من الألم وهو يصرخ .

– أليس حراما أن آكل أنا هذا الزفت ، بينما خادمى الزنجى الذى كنت أضربه بالحذاء يتنعم عندكم فى الجنة مع الحور العين ويأكل الفاكهة ألوانا .. أنا .. النجم الذى ملأ الدنيا ضجيجا ، وغطت صورته أغلفة المجلات والجرائد وملأت أعاجيبه وسيرته قنوات التليفزيون .

قال مالك :

– نجوم الدنيا ليسوا نجوم الآخرة .. وكم من نجم فى الدنيا

مشى خلف جنازته خمسة ملايين ، وبكاه الباكون وانتحروا على نعشه ؛ ثم هو الآن نكرة لا ذكر له ولا اسم فى أسفل سافلين .. وكم من ناس عاشوا لا يدرى بهم أحد ، وماتوا لم يمش خلفهم ثلاثة وهم الآن فى الجنة لهم معراج وشفاعة .

– ترى مَنْ هو نجم نجوم الجنة وشمس شموسها ؟

– هو محمد عليه الصلاة والسلام العارف الكامل والعبد الكامل الذى كان كلما ازداد معرفة ازداد عبودية .. ذلك هو شمس شموس الجنة وله جنة خاصة به وحده هى جنة الوسيلة وله الشفاعة العظمى .

– ألا يمكن أن يتشفع لى فأخرج من هذا البلاء ؟

– إنما يتشفع للمؤمنين وأهل التوحيد الذين مشوا على قدمه ثم زلت بهم طبيعتهم وغلبتهم بشريتهم ، فعصوا مرة أو مرات .. أما أمثالك فمن هؤلاء الذين قال له الله فيهم (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) .. والشفاعة لا تجوز إلا بإذن الله ومشيئته ولا شفاعة ضد المشيئة .. إنما الشفاعة هى عين المشيئة .

– ولكن الله رحمن رحيم ولا قانون يحد رحمته وقد يرأف بحالى .. وهو يفعل ما يشاء ولا يسأل عما يفعل ؛ وليس من حقك أن تحد من رحمته .

– ليس من حقى ولا من حق أحد أن يحد من رحمة الله ، ولو أنك عرفته بهذه الصفات فى الدنيا ، ولو أنك عملت على

مقتضى هذه المعرفة لكان بينك وبينه الآن عروة وثقى وحبل متين وعهد تتوسل به .. أما وقد أنكرته وجهلته وأعلنت ألوهيتك وقلت أنا الذى أحيى وأميت .. فقد قطعت حبل النجاة بينك وبينه وأصبحت واقفا وحدك .. فحسبك ونفسك .. انقذ نفسك .. هذا يوم يجمع الله حوله أهله الذين عرفوه واتبعوه ؛ ويجمع الشيطان حزبه الذين عرفوه واتبعوه .. أليس هذا هو العدل .

– أنا لا أسأل العدل بل أسأل الرحمة .

– لقد قال الله إنه لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لـمَنْ يشاء .

– وهل أشركت ؟

– وأكثر .. لقد أقمت نفسك إلهاً تحطم الشرائع الإلهية وتنسخها بكلماتك .

– هيه .. يا مالك .. كنت أمزح .. كان هذا مزاحا سخيفا .

– ونحن أيضا نمزح معك مزاحا سخيفا .. ألك فى طلب آخر ؟

– لا .. أرجوك .. لا تذهب وتتركنى لهذا الحيوان .. اعطنى بعض الزفت أشربه .. وبعض القطران أيضا وبعض البول ، ودعنى آكل من هذا الشوك حتى يصعد إلى أذنى فيسدهما .. ألا تلاحظ أن هذا الحيوان باناماريوف لا يأكل ولا يشرب وإنما يتكلم كلاما متواصلا .. ولا يتوقف لحظة عن الكلام .. ما حكايته خبرنى بالله .. وما سره .. هذا شىء خرافى .

فقال مالك وهو يبتسم :

– لقد جعله الله آلة من آلات تعذيبه فى الدنيا والآخرة .. وهو أشد آلات التعذيب تنكيلا .

– نعم إن كلماته لا تتوقف وهى تنخس فى النافوخ حتى ينفجر .

– ذلك هو السخف المطلق ، وهو كالشر المطلق والكفر المطلق أسفل درجات جهنم .

– ولماذا جسد لنا الله هذا السخف المطلق ؟

– لندرك جمال العقل ولطف الإحساس ونور الحكمة .. فنحن مخلوقون بطريقة لا نعرف بها النور إلا بالظلمة .

– لقد عرفت والله العظيم عرفت وتبت واستغفرت .

– لا أظن أنك تبت تماما .. فقد كنت منذ لحظات تخطط لثورة اشتراكية فى الآخرة .

– كنت أمزح والله العظيم .. وكان مزاحا سخيفا .. وأنا عيبى أنى لا أستطيع أن أكف عن المزاح السخيف .

– بالضبط وهذا ما جمعكما فى زنزانة واحدة .. ذلك الشىء المشترك .. السخف .. لقد اعترفت الآن على نفسك .

– نعم .. لقد حلت علىَّ اللعنة بالفعل .

– والآن وداعا يا عزيزى الدجال .

ولكن الدجـال عاد يمـسك بتلابيـبه ويبكى ويسـترحم ويقـبل الأقدام .

– دقيقة واحدة .. لا تتركنى بحق الله .. لا تدعنى بحق محمد .

– اسـتحـلفتنـى بالعظيم والأعظم ولك هذه الدقـيـقـة فأوجـز ولا تطل .

– سؤال واحد : ألا يمكن أن تأتينى بزوجتى أم العيال ؟

– أى زوجـة فيـهن لقد تزوجت ثمـانين زوجـة ، واستـحللت فروج خمـسة آلاف امرأة دون زواج .. وقد أنجبـت من الكل عيالا بلا عدد.

– زوجتى « زهرة الرند » . جـميلة الجـميلات وفـتنة الفاتنات ورفيق الـعمر الطـاهرة الوفيـة التى لم تخنى ، ولم يخطر ببالـها غيرى طوال ستين عاما .

فأجاب مالك فى صوت قاطع مقتضب :

زوجناها لإبليس .

فانتفض الدجال وكأنما طعن فى صدره طعنة نافذة .

– زوجتوها لإبليس .. كيف .. أتزوجون الناس على كيفكم .

– هى التى راق لها إبليس وراقت له .

– كيف وهى أطهر من قطر الندى وأوفى من عذارى الأحلام .

فقال مالك وهو يتحسس الألفاظ :

– ليس بالضبط .. يبدو أن الأمر اختلط عليك .

– ماذا تعنى ؟

– أعنى أنك أحسنت الظن بنفسك أكثر من اللازم .

– بنفسى أو بها ؟

– بالاثنين .

– ماذا تعنى أفصح ولا تعذبنى .

– أعنى أن « زهرة الرند » الوفية الطاهرة قد خانتك مع طاهيك وبوابك وسائقك وخادمك وأصدقائك .. واستحل فرجها خمسة آلاف رجل هم عدد من زنيت بهن من نساء .. وكانت كلما رقدت فى حضن رجل واستبدت بها اللذة صرخت فى نشوة .. أين المخنث المأبون زوجى ليتعلم كيف يضاجع النساء .

فصرخ الدجال صرخة شقت دماغه ، وخرج لها قلبه من صدره .. وخرجت أحشاؤه من بطنه .. ثم عاد فصرخ :

– اللعنة على جميع النساء .. احرقونى بالنار .. احرقونى حتى أنسى .. احرقوا دماغى .. احرقوا عقلى .. احرقوا ذراعى .. احرقوا أناملى التى لمستها وتحسست خديها .. احرقوا شفتى التى قبلتها.. احرقوا لسانى الذى قال لها أحبك أعبدك .. احرقوا الكذاب الذى عاش عمره فى الكذب .. صدق رب العالمين .. أنا لا أصلح إلا للعنة ولا تصلح اللعنة إلا لى .. اذهبوا عنى .. لا أريد أن أرى أحدا .. أريد أن أبقى وحدى .. أن أموت خزيا وأهلك عاراً .

وكانت دموعه تسيل نارا ذائبة ملتهبة .

وخرج مالك وزبانيته .. وتركوه وحده مع باناماريوف .

وراح الدجال يأكل نفسه وكلما أكل عضوا عاد فنما من جديد ، أكل يديه وذراعيه وأكل قدميه ،أكل ساقيه وأكل لسانه وابتلع شفتيه .. وكأن إحساسا بالخزى فى داخله يأكله كالنار ، ولكن لا فائدة فقد عادت هذه الأعضاء فنمت من جديد فى فورية عجيبة، ثم أبلس من اليأس فكب وجهه فى الأرض وتكوم وانكمش حتى أصبح مثل قنفد أسود .

وعادت نبرات باناماريوف الخشبية تعلو وتتسلل إلى خلاياه فتنخس فيها خلية خلية .

– إن التركيب الهلامى للبنية الفوقية كما يقول لينين هو صورة انعكاسية للعلاقات المادية التداخلية ، وعلاقات الإنتاج الترابطية والمعاناة التحتية البروليتارية ، ولكن فى تكوين هيولى لا يصمد لحركة الشغالين وتجمعات القاعدة الصلبة للتنظيم الهرمى الحزبى، وأن الإمبريالية التآمرية فى صراعها مع التكوينات البيداجوجية والتجمعات التكنوقراطية فى ظل الثيوقراطية والمنشفية هى جوهر الماركسولوجيا .

وكان الدجال يضع أصابعه فى أذنيه ولكن الكلمات كانت تنخس فى نخاعه ، وما لبث أن انفجر صارخا .. هذه المرة صرخة أعظم من الأولى سمعتها السماوات السبع والأرضين السبع .

– لا .. لا .. لم أعد أحتمل .. الرحمة .

يا مالك .. فليقض علينا ربك .

وأعقب الصرخـة سبعين ألف سنة من الصـمت المطبق قبل أن يجيب مالك بإذن وإلهام من ربه :

– إنكم ماكثون .

اخسأوا فيها ولا تكلمون .

يا أهل الجحيم عذاب ولا موت .

ويا أهل الجنة نعيم ولا موت .

جفت الأقلام وطويت الصحف .

وحقت كلمة ربك لا راد لحكمه ولا معقب لكلماته .

وكان الدجال قد انسحق إلى تراب كل ذرة فيه تتعذب .

حكايات..
الرجل الحكيم

صياد الحقائق

قال الرجل العجوز :

لا تنظر إلى مـا يرتسم على الوجوه ولا تسـتمع إلى مـا تقوله الألسن ولا تلـتـفت إلـى الدمـوع ، فكـل هذا هو جلد الإنسـان ، والإنسـان يغيـر جلده كل يوم ولكن ابحـث عمـا تحت الجلد .. لا ليس القلب ما أعنى ، فالقلب هو الآخر يتقلب ولهذا يسمونه قلبا .. ولا العقل فـالعقل يغـير وجهـة نظره كلما غيـر الزاوية التى ينظر منهـا ، وقد يقبل اليـوم ما أنكره بالأمـس ، ألا يبدل العلمـاء حتى العلماء نظرياتهم .

لا يا ولدى .. إذا أردت أن تفـهم إنسانا فـانظر فـعله فى لحظة اختيـار حر ، وحينئذ سـوف تفاجأ تماما فقـد ترى القديس يزنى وقد ترى العـاهرة تصلى ، وقد تـرى الطبيب يشـرب السم ، وقد تفاجأ بصديقك يطعنك وبعدوك ينقذك ، وقد ترى الخادم سيدا فى أفعاله والسيـد أحقر من أحقر خادم فى أعـماله ، وقد ترى ملوكا

يرتشون وصعاليك يتصدقون .

انظر إلى الإنسان حينما يرتفع عنه الخوف وينام الحذر وتشبع الشهوة وتسقط الموانع ، فتراه على حقيقته يمشى على أربع كحيوان ، أو يطير بجناحين كملاك ، أو يزحف كثعبان ، أو يلدغ كعقرب ، أو يأكل الطين كدود الأرض .

اسمع قصتى يا ولدى واعتبر ، فقد بدأت الحياة تعلمنى والحوادث تؤدبنى ، منذ صباى منذ أن كنت فى العشرين طالبا ، أسكن على السطح وتحتى فى العمارة تسكن جارة جميلة متزوجة من رجل كهل مريض بالقلب .

وكانت الجارة الجميلة تتردد على غرفتى وتساعدنى فى حياتى من باب العطف والخلق الكريم والجيرة الطيبة ، هكذا كان يبدو لى فهى تغسل لى ثيابى وتدبر طعامى وتشترى لى من الكتب ما لا أستطيع شراءه ، ثم فى ساعات ترفع الكلفة وتمضى تشكو لى سوء حظها وتبكى .

وماذا تفعل مع إنسان يبكى بحرارة سوى أن تضمه فى حنان وتربت عليه .

ثم كيف تسير الأمور بين رجل وامرأة متحاضنين .

هذا أمر تتكفل به الطبيعة .

ثم يسوق اللسان ما شاء من أعذار عن الحب والهوى والهيام.. وتصدق الدموع على المشهد المؤثر . وتكتمل اللوحة بإتيان ذلك

الفعل القديم قدم آدم وحواء .

ثم تصبح الحكاية عادة .

وتتشابك الأيدى فى عهود ومواثيق وأيمان مغلظة بالزواج والوفاء حتى الموت متى سمح الظرف .

ثم يسمح الظرف فجأة ، فيموت الزوج بالسكتة القلبية ويخلو الجو وتسقط الموانع وتتبخر العقبات .. فماذا يحدث ؟

تنشغل الجميلة وتتشاغل وتغلق بابها وتنكر نفسها وتمرض وتتمارض .

ثم أسمع أنها تتردد على طبيب عند رأس الشارع .

ولم تكن بها علة والطبيب ولا شك أدرك أنه ليس بها مرض ولكنه مع ذلك ظل يتابع كتابة الروشتات والفحص ، ثم إعادة الفحص ثم التصوير بأشعة اكس والعلاج بالأشعة تحت الحمراء ، ثم طلب رسم قلب وطلب رسم مخ وطلب تحليل دم ثم جلسات كهربا ، ثم انتهت القصة المشوقة بجلسة عائلية سعيدة وكتب كتاب .

لاشك أن المرأة عندها مواصفات مختلفة حينما تفكر فى الزواج غير المواصفات التى تطلبها حينما تحب .

وهل كان من الممكن أن تتزوج طالب حقوق فاشلا وهى التى أصبحت صاحبة العمارة والوارثة الوحيدة لربع مليون جنيه .

اسمع يا ولدى بقية القصة .

الحق أنها كان عندها نظر حينما اختارت الطبيب ولكن الطبيب أيضا كان عنده نظر حينما اختارها . كان لكل منهما غرض من الزواج .

وكان غرض الطبيب أبعد فما لبث أن انتقل بعيادته إلى شارع قصر النيل ، وما كاد يمر العام الثانى حتى كان قد أنشأ مستشفى خاصاً وزوده بأحدث المعدات .

وفى العام الثالث كان يسافر إلى أوربا ليستكمل تجهيزات المستشفى ، هكذا قال لها ولكن حينما عاد كان قد استكمل شيء آخر فعلى ذراعه كانت هناك حسناء سويدية مثل شعاع الشمس.

لقد استكمل نصف دينه الباقى .

وللسويدات الحسناوات منافع أخرى .

فهى يمكن أن تعمل رئيسة لحكيمات المستشفى والمديرة بالنيابة فى أثناء غياب الطبيب .

لم يكن صاحبنا الطبيب يضيع وقته .

وهذه فائدة الدراسة فى كليات عملية .

وأمام انفجار الزوجة الأولى وشجارها لم يجد الزوج المسكين بداً من طلاقها .

اسمع يا ولدى بقية القصة .

ولندر عجلة الزمن بسرعة لنختصر الكثير من التفاصيل التى

لا جدوى منها .. ولندع العجلة تجرى بنا عشرين سنة .. ثم نتوقف أمام هذه اللقطة المثيرة .

هذا أنا وقد أصبحت محاميا ناجحا يشار إليه بالبنان تتصدر أخباره أعمدة الصحف ويكسب لعملائه أصعب القضايا ، وهذه هى مرة أخرى أمامى على كرسى المكتب الوثير حبيبة الصبا أيام ليالى السطوح .

ولكن ما حدث منذ عشرين سنة لا يمكن يا ولدى أن يتكرر .

ولهذا كان لابد لى أن أوقظها من وقت لآخر قائلا : يا أمى خلينا فى القضية ..

وكالعادة كانت دائما تتعلل بقضية .

كم تغيرت الملامح .

وكم ترهل الجسد .

أهذا هو الصدر الذى كنت أتمرغ عليه وأنا صغير وأبكى ؟

أهذا الفم الذابل المغضن هو الذى كنت أجن بتقبيله ؟

كم أقسم لى هذا الفم بالحب والوفاء ، وكم أغلظ لى الأيمان والمواثيق بالارتباط حتى الموت .

هيه يا ولدى .

كم تتغير المواقف بمضى الزمن فيخرج مساجين الأمس ليكونوا حكام اليوم .. ويتدلى من أعواد المشانق مَنْ كانوا بالأمس

ملوكا .. وتذل رءوس وتـرتفع هامات .. ويمضى مـشاهيـر كانوا عناوين فى الصـفحـات الأولى ليـصبـحوا نكرات فى صـفحـات الوفيات لا يعلم عنها أحد ، وتتبـخر قصص حب دفعت بأصحابها إلى الجـريمـة ولو قـدر للعـشـاق الذين هامـوا وسـهـروا وبكوا وانتحروا حبا أن يبعثوا من جديد من قبورهم ، ليروا ماذا كان من أمر الذين انتحـروا من أجلهم لربما ضحكوا ملء أشداقهم عـجبا ، كـيف حدث أنهم أحـبـوهم ذات يوم وكـيف تاهوا وذابوا فى تلك الملامح والعـيون التى شاخت ، وأصـبحت مـحاجر يسكنـها المكر واللؤم .

أين كـان يختـبئ ذلك المكر فى تلك اللحظات الملائكيـة الرفافـة الشفافـة حينما كانت العيون تلمع مـثل سماوات صافية مـرقشة بالنجوم تحف بها القبلات .

يا إلهى ما أحكمك حينما نهيتنا عن الهوى والغواية .

هذه أمـور يا ولدى تزينها الشـياطـين للناس وتزفهـا لهم فى ثياب باهـرة من الزخرف ، تذهب بالعـقل فلا يعـود الإنسان يرى فى أى حفرة سوف يضـع قدميه .

لا تكن يا ولدى من عشاق الوجوه بل كن من عشاق الحقائق ..

ابحث عن حقيقة الإنسان تحت جلده ودعنى أكمل لك القصة .

إن السويدية الجميلة مثل شـعاع الشمس لم تستطع أن تتأقلم على تقاليدنا الشرقية فـهربت مع سائح فرنسى ، والطبيب أصبح مريضا يرقد فى غرفـة الإنعاش بشلل نصفى ، وأنا فقدت أسنانى

ووضعت أموالى تحت الحراسة ولم أعد أملك إلا هذا العكاز أتوكأ عليه .

لقد أفلسنا جميعا .. كل الأطراف .. ولم تبق منا إلا أوهام تصورناها فى زمانها ، إنها حقائق فاستعبدتنا وأضلتنا وهى قبض الريح .

أتظن يا ولدى أن أحدنا قد أحب حقاً ، أم أنها كانت الأنانية مطلقة السراح .. والمصالح تلبس ثياب العواطف .. والشهوات ترتدى أزياء النبلاء .. والأطماع تدعى البراءة .

لهذا يا ولدى قلت لك .. لا تنظر إلى ما يرتسم على الوجوه ، ولا تصغ إلى ما تقوله الألسن ولا تلتفت إلى الدموع ، فكل هذا هو جلد الإنسان والإنسان يغير جلده كل يوم .. ولكن ابحث عن ما تحت جلده .. ليس قلبه ولا عقله .. فتلك أيضا أمور تتغير .. ولكن انظر إلى فعله فى لحظة اختيار حر تعرف حقيقته .

تعلم كيف تكون صيادا للحقائق متسللا إلى ما تحت الجلد ، مسترقا إلى النخاع حتى لا تضيع حياتك فى الأوهام كما ضاعت حياتنا .

البنك المركزى

قال لى صاحبى المغرم بالحواديت :

– مجانين هؤلاء الذين يتخذون من المال هدفا لحياتهم ، فليس للإنسان إلا بطن واحدة يملؤها ، وهو لن يستطيع أن يلبس إلا بدلة واحدة كل مرة ولا أن يسكن إلا بيتا واحدا فى وقت واحد ، فإذا زادت ثروته على حاجاته فلن تكون هذه الزيادة فى خدمته ؛ بل سيكون هو الذى يعمل فى خدمتها .

وهل نفعت شاه إيران ملايينه .

لقد كان يملك سبعة آلاف مليون جنيه ويعيش مع حاشية من الحراس فى عدة قصور وراء أسوار عالية فى جزر الباهاما ، والذين كانوا يعيشون مع الرجل المسكين كانوا يقولون إنه يأكل ولا يهضم ويضطجع ولا ينام ويعيش فى الخوف والرعب والقلق ويده على زناد مسدسه ، فإذا ثقلت أجفانه من التعب هاجمته

الكوابيس .. وقد نقص وزنه أكثر من خمسة عشر كيلو جراما وأصبح لحما على عظم ، وغدا شبحا يتحرك وظلا مرتجفا يكلم نفسه .

وماذا فعل أوناسيس بملايينه ..

لقد أحب أرملة الرئيس الأمريكى وتزوجها وهل أحبها حقًا . ؟؟

بل المال هو الذى أحب المال .. والطمع هو الذى أحب الطمع ، والغرور هو الذى أحب الغرور والشهرة هى التى أحبت الشهرة .

ولم تستطع السعادة المفتعلة المصطنعة أن تصمد أمام حادث وفاة ابنه الوحيد بحادث طائرة فانهار الرجل ؛ كما ينهار جوال فارغ وتهاوى كبالون أصابه خرق وانهارت أسطورة الحب الخرافى .. ورأينا الأرملة الحزينة تظهر فى ثياب الحداد على ذراع أمير ، ثم على ذراع ملاكم ثم رأيناها تراقص ممثلا ؛ ثم تغازل صاحب مصانع صلب ثم فى ناد ليلى مع مليونير .

وعاد الغرور يبحث عن غرور آخر .. والمال يبحث عن مال يرافقه والطمع يبحث عن طمع يؤنسه ، وحب الشهرة يبحث له عن مادة وإشاعات وصفحات ، والبالونة تحاول أن تنفخ نفسها عبثا ؛ وقريبا يصيبها الدبوس فتنفجر كالفقاعة ولا تترك أثرا .

مجانين يا عزيزى هؤلاء الناس الذين يتخذون المال هدفا والشهرة غاية ، والطمع خلقا والغرور مركبا .

إنهم يعبئون الهواء فى حقائب ويمسكون بالظل وينقشون أسماءهم على الماء .

إنها مسألة لا تقدم ولا تؤخر إذا اشتهرت بالطيبة وأنت فى حقيقتك شرير .. فحقيقتك هى التى تلازمك . أما كلام الصحف فمصيره مثل مصير ورق التوليت ، والناس يغيرون وجوههم كل يوم فلا تبحث عن قيمتك فى وجوه الناس .

اسمع .. إن أفقر الفقراء اليوم يستطيع أن يركب عربة ويستقل قطارا سريعا إلى بلده .. وكان أغنى أغنياء زمان لا يجد إلا حصانا يحمله ويلقى به منهكا مجهداً بعد سفر الأيام والليالى .

وأغنى أغنياء زمان كان يتباهى بأنه يستطيع أن يجلب فرقة راقصة مغنية تسليه هو وضيوفه .. وأفقر فقراء اليوم يستطيع بضغطة زرار أن يستعرض بضع فرق راقصة مغنية ، فى بضع محطات تلهو وترقص أمامه بالألوان فى تليفزيون أو راديو . بينما هو يرخى أهدابه لينام فى راحة ، صدقنى أن الإنسان لا يشكو لحاجة مادية ، فهو اليوم أغنى وأكثر ترفا من قارون الأمس . ولكنه يشكو لأنه ينظر إلى ما فى أيدى الآخرين .. مَنْ يركب عربة بالأجرة ينظر إلى مَنْ يركب عربة «ملاكى» . ومَنْ عنده العربة الملاكى ينظر إلى من عنده العربتان . ومَنْ عنده عربتان ينظر إلى مَنْ عنده يخت . ومَنْ عنده يخت ينظر إلى مَنْ عنده طائرة . وصاحب الزوجة الجميلة لا ينظر إلى زوجته بل

ينظر إلى زوجة جاره .

إن كل ما نملكه يفقد قيمته والأنظار فى تحول دائم إلى ما يمتلكه الآخرون ..

إن حقيقة الأمر هو الحسد والعدوان والحقد وليس الفقر ولا الافتقار .. وسوف تزداد الشكوى كلما ازداد الناس غنى .. ويزداد الناس إحساسا بالفقر ، كلما ازداد ما يمتلكون . لأن الغنى الفعلى هو حقيقة نفس وليس حقيقة رصيد .

ولأى شىء يشحذ الشحاذ إذا كان يضع كل الفكة ألوفا مؤلفة من الجنيهات فى جوالات ، ولا ينفق منها شيئا .

ولماذا جمع ما جمع ..

ولـمَنْ كان يجمع ..

لا شىء سوى لذة السلب والعدوان والإحساس بأنه أذكى ممن أعطاه ، وأنه ضحك عليه .

وما ضحك فى الواقع إلا على نفسه .

ليتنا نتوقف عن الجرى واللهاث باحثين عن لحظة صدق لا نضحك فيها على أنفسنا .. لحظة صدق واحدة يا صاحبى أثمن من جميع اللآلئ .. لحظة صدق واحدة هى الحياة .

هل صدعت رأسك ؟

دعني أحك لك قصة ..

دعني أرجع بك خمسين سنة إلى الوراء إلى نفس هذا الشارع الذى نسير فيه وكان اسمه شارع عماد الدين .. وعلى جانبيه كانت تتراص الحانات والبارات والمقاهي والمسارح وبعضها مازال قائما إلى الآن .. كان دائما شارع الحظ والفن والطرب .. وكان ملتقى المتسكعين من كل الأصناف .. وهنا فى نفس هذا المكان وكأنى أراه أمامى الآن .. كان يقف شاب .. ودعنا من الأسماء فهى مجرد بطاقات لا تعنى شيئا .. هو شاب ابن عيلة متخرج جديدا من الحقوق فى يده ليسانس . والليسانس فى تلك الأيام كان لا يعنى أكثر من اثنى عشر جنيها شهريا هذا إذا كنت محظوظا ووجدت الوظيفة ..

ولكن الشاب الطموح كانت تعشش فى رأسه أحلام أكبر من هذا بكثير ، وكان متعجلا يريد الثراء فى أقصر وقت وبأى سبيل.

وكان له عم يحدثه عن باريس وعن السوربون ويكلمه عن السفر والدكتوراه .. ويقول له سوف أنفق عليك وأتكفل بك ..

وسافر الشاب إلى باريس .

ولكنه كما قلت كان متعجلا ومشوار السوربون والدكتوراه كان أطول بكثير من خطوته .. وكان شارع البيجال أكثر جاذبية وأقل مشقة .

وبدأ صـاحبنا دراسـته من شارع الـبيجـال من عند فتـاة بار ألمانية شقراء .

وطافت به مـارجـريـت على علب الليل ، ونزلـت به إلى عـالم البدروم والستريبتيز والمخدرات .

ثم أخذته إلى ألمانيـا وعرفته على شـقيقها تـاجر المخدرات فى ميونخ .

وأنفق عليـه الهر شلاير فى بـذخ خرافى وفتح أمـامه أقـصر الطرق إلى خزائن الأحلام .

وهكذا غدا صاحبنا عضوا عامـلا فى أكبر عصابة تهريب تعمل بين تركيـا ولبنان وإسرائيل وأوربا والشمال الإفـريقى ، وأصبح مليونيرا فى شـهور ثم قاتلا قبل أن يمر عام واحـد ، ثم مسجونا فى مدريد ينام على الأسفلت ويتبول فى برميل ، ثم هاربا تطارده المدافع الرشاشـة والكلاب البوليسـية ، ثم مسجـونا من جديد فى سـجن برلين وراء عـيون الكتـرونيـة وقـضبـان غليظة وأسـوار مكهربة تجرى هذه الأحداث مسرعة وتجرى أحداث الحرب العالمية الثانية فى موازاتها مسرعة هى الأخرى .

والسنوات تمر حبلى بالكوارث .

وصاحبنا مسجون .

والقنابل تتساقط على برلين .

والحلفاء يدخلون برلين من ثلاثة مواضع .

وكل شيء ينفجر من حوله ومن فوق رأسه ومن تحت رجليه .

وينفجر السجن ويجد نفسه في العراء شبحاً يجري في الدخان والبارود .

هيكل عظمي لرجل متسول .

ويشاهد أمامه ألمانيا أخرى غير التي عرفها .

أنقاض وخراب وأشلاء وجوع .

ونساء تبيع الواحدة نفسها برغيف وسيجارة .

والكل ينهب ويسرق ويقتل .

وبنك الرايخ الألماني على الأرض .. البنك المركزي الألماني الذي كان يضمن كل مؤسسات وشركات ألمانيا ويقرض الدول والجماعات ، أصبح أعمدة من الخرسانة وحفرا وفجوات وأكواما من التراب .

ولعل كثيرين قد فكروا مثله .

ولعل بعضهم سبقه .

إنها خبطة العمر .

أن يعثر على خزينة محطمة في تلك الأنقاض ، وأن يملأ حقيبته بملايين الماركات ويحل كل مشاكله في لحظة وإلى الأبد .

إن الكل ينهب والكل يسرق والكل يقتل .

والجريمة هى القاعدة والجنون هو الدستور .

هل تصدق يا صاحبى ..

لقد عثر الرجل بالفعل على ضالته وملأ حقيبته بملايين الماركات ، وعاد كالمجنون ليقرأ فى الصباح مانشتات عريضة فى جميع الصحف ، بإفلاس العملة وإلغاء المارك الألمانى .

وهكذا تحولت الملايين فى يده إلى صفر هكذا فجأة وفى غمضة عين وفقد الرجل عقله .

البنك الذى كان يضمن العالم أصبح غير مضمون .

لا حول ولا قوة إلا بالله .

هذه جنازة تخرج من الشارع يا صاحبى .

تُرى جنازة مَنْ ؟

مَنْ قال إن أحدا يستطيع أن يضمن أحدا ؟

الضامن هو الله .. تعال معى نشيع الرجل .. إن معدتك لن تضمن لك بأنك سوف تهضم ، فقد تضرب معدتك عن الهضم وأمعاؤك عن الامتصاص ، فتشرب ولا ترتوى وتأكل ولا تشبع ، وتموت من الجوع والعطش وبطنك ملأى بالماء والطعام ..

البنك الذى كان يضمن العالم لم يستطع أن يضمن نفسه

يا صاحبى الضامن هو الله .

مَنْ يضمن لك أنك سوف تعبر الشارع بسلام ؟

وهل تصور المرحوم الذى نشيعه الآن أنه سوف يعبر الشارع محمولا على الأكتاف .

لو أن الشاب بطل قصتنا لم يتعجل ولم يطلب الثراء بأى ثمن لكان له شأن آخر .

ولو أنه سار معنا وراء هذه الجنازة لرأى المقابر ملأى بألوف الموتى ممن كانوا متعجلين مثله ، ولم يصلوا إلى شىء ، ولربما تغير تفكيره .. ولربما اعتبر .

إن مشكلة الإنسان أنه قليل الصبر ، وأنه يحاول أن يحصل على كل شىء فى التو واللحظة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالجريمة .

ومشكلة كارل ماركس أنه حاول أن يختصر التاريخ ويحقق الجنة على الأرض ، فكانت نظريته هى الأخرى جريمة .

ولم يتحقق له إلا القتل .

هل تعرف لماذا لا نصبر ؟

لأننا نقول دائما لأنفسنا .. ومَنْ يضمن لنا المستقبل إذا ضحينا بالحاضر ؟!

ولا أحد يفكر بأن الله هو الضامن وأنه هو الحقيقة الوحيدة

المؤكدة وأنه خالق الوجود وضامنه .

إن بنك الرايخ الألمانى الذى كان يضمن العالم لم يستطع أن يضمن نفسه .

ولو امتلأت النفوس بهذا الإيمان لانجلت العقد .. ولكن لا إيمان اليوم برغم كثرة المآذن .

إنها مجرد مصاحف مدلاه على الصدور .

لكن الصدور نفسها ليس فيها شىء سوى رغبة محرقة فى اغتنام لذة أو انتهاز مصلحة .

هيه يا صاحبى .. تُرى هل اعتبرت ..

أم أنك فى حاجة إلى قصة أخرى .

هل تعرف مَنْ هم المؤمنون ؟

إنهم الذين لا يحتاجون لأى شىء ولا يتعجلون أى شىء .

تبسيط المسائل

قال العجوز الحكيم :

– أخطر شيء يا صاحبى هو تبسيط المسائل وتلخيص الحياة فى نقطة والسعادة فى مطلب .

يقول الواحد منا لنفسه .. لو أنى كسبت هذه الورقة اليانصيب لانتهت جميع المشاكل .

لو أنى تزوجت هذه المرأة لأصبحت أسعد إنسان :

لو أنى هاجرت إلى أمريكا لحققت كل أحلامى .. لو أنى تخلصت من هذا المرض المزمن الذى ينغص علىَّ حياتى لصنعت من نفسى رجلا عظيما .. لو .. لو .. لو ..

ودائما تتبسط المسألة فى نقطة واحدة ، وقديما تصور فرويد تبسيطا شديدا للنفس الإنسانية ، فقام بتفسير جميع حوافزها وعقدها وانحرافاتها بالحافز الجنسى .

وأخطأ فرويد .

وكان سبب الخطأ أن الحياة لا تقبل التبسيط ، وأنها نسيج معقد متداخل من عدة عوامل .

وإذا حاولت أن تبسطها فإنك تمزقها فى نفس الوقت .

ولا شك أن كل الكائنات الحية هى فى النهاية وبتبسيط شديد « ماء وتراب » .

ولكن هل هى كذلك .. أبدا .

إن التبسيط قتل الحقيقة .. وهذا ما يقع فيه كل إنسان منا حينما يتصور أن كل حياته تبدأ وتنتهى عند الحصول على هذه المرأة ، وإذا فقدها ضاعت حياته وإذا فاز بها فاز بنعيم الدنيا والآخرة .

ونتيجة هذه الرؤية التوحيدية المركزة تتوتر أعصابه فلا يعرف طعماً لأكل أو نوم أو راحة ، ويسقط عليلا مثل مجنون ليلى .. وقد يبتلع أنبوبة أسبرين ليتخلص من عذابه .

ولو أن مجنون ليلى حصل على محبوبته ليلى وتزوجها وتحقق له ما كان يحلم به لأفاق من جنونه تماماً ، ولعاد له عقله من أول لكمة فى الفراش من ليلاه العزيزة وهى تقول له : ابنك عنده إسهال .. وبنتك تقىء طول الليل .. وأنا طهقت .. روح شوف أمك تشيل عنى العلل دى .. أنا قرفت منك ومن ولادك .

قطعاً كانت جميع الرؤى الشعرية والأطياف الملائكية ستتبخر من دماغه ، ويلعن اليوم الذى نظم فيه قصيدة أو كتب موالا ..

ولربما قـام وهو يبرطم ويسب وجـلس على باب الخيـمة وأنشـد قصيدة يلعن فيها القمر والشجر وحياة مثل حياة البقر .

ولكن الله لم يبلغه مراده لأنه أراد أن يكون للوهم ملوك يفتنون الناس ، كما أراد أن يكون للحقيقة ملوك يوقظون الناس .. ليجرى امتحان النفوس فى عدالة بين شد وجذب الفريقين .

آسف لهـذه المقدمـة الطويلة التى صدعت بهـا رأسك .. ولكنى أردت أن أثير فكرك قبل أن اقص عليك هذه القصة العجيبة .

وبطل قصتنا طبيب جـراح له أنامل موسيقية وروح موسـيقية وهو يعيش بوجدان شاعر مرهف الإحساس ذواقة للجمال .

ويمكن أن تتصور حياة رجل مـثل بطلنا يعيش مع زوجة مثل كرة من اللحم والشحم، ثرثارة، بليـدة الحس، غليظة الطبع، خاملة المشاعر .. حياة كان يقول عنها إنها أشبه بمصارعة الثيران .

ثم يمكنك أن تتـخيل مـا يحدث حيـنما يقابـل المرأة الأخرى .. الفراشة فى رهافتـها المانكان فى خطوتها، الموسيقـية فى نبرتها ، الملائكية فى روحها ، النورانية فى طباعـها ، تلك التى كان يصفها بأنها قطرة ندى أو شعاع فجر .

ويمكنك أن تتصور جنون كل منهما بالآخر .

ثم دموع الاثنين وعذاب الاثنين فكل منهما متزوج .

وهى لا تستطيع الفكاك دون دم وجراح وقطع أرحام .

وهو لا يريدها أن تعبر إليه على أشـلاء أحد ، فلم يبق لهما إلا

الصبر والصلاة وانتظار معجزة .

واعجب معى يا صاحبى فقد حدثت المعجزة وتدخلت السماء ومات الزوج ، وطارت الحمامة رفافة الجناحين إلى ذراعى حبيبها.

لعلك توقعت مفاجأة مثل مفاجأة زواج قيس وليلى لا يا صاحبى اطمئن.

إن الطبيب العاشق يقول بنص كلماته : لقد وجدتها مثل ما تصورت وأجمل .. وجدتها نوراً مذاباً وشفافية حلوة وخلقاً متكاملاً ، وظلاً ظليلاً ، وواحة حب وجنة مصغرة على الأرض .

ولعلك تسأل الآن : وأين المفاجأة ؟

المفاجأة يا عزيزى كانت نقطة تافهة أهملها البطل ونسى أن يدرجها فى الحساب .. هى جنون السرعة .

كانت البطلة مغرمة بجنون السرعة .

وكانت فى لحظات النشوة والسعادة تطلق لسيارتها العنان فيقفز مؤشر السرعة إلى ١٨٠ كيلومترا .

وهكذا قفزت السيارة ذات مساء وذات نزهة بريئة فى ضوء القمر عدة أمتار فى الهواء ، ثم انقلبت لتدور حول نفسها عدة دورات .

وخرج الطبيب من الأنقاض ليعيش بساقين خشبيتين وذراع صناعية .

وهو الآن يتســاءل على الدوام وهــو يدفع بكرســيــهِ ذى العــجــلات ، ألم تكن حــيــاته مع كــرة اللحم والشــحم، الثــرثارة، الخاملة المشــاعر ، الغليظة الطبع التى وصــفهــا بأنها كانت حــياة كمــصارعة الثــيران ، أفضل بكثــير مما كان ينتظره مع الفــراشة، الملاك، المانكان، الموسيقية النبرات .

ألا يخطئ الإنســان أحيانا حــينما يبــسط المسائل ويتــصور أن حــياته مع تلك المرأة ســتكون جنة ، فــلا يطلب من الدنيــا غيــرها ولا يرى فى الوجود مثلها ، ولا يتخيل كمالاً إلا فيها .

وهل يصــح التبــسيط فى مسائل مــعقدة ملغزة بطبــيعتهــا مثل القدر والإنســان .

ألا تبدو المسائل أعقد بكثير مما نتصــور فيأتينا الخير أحيانا مما نكره ، ويأتينا الشــر مما نحب .

الفســتان

كـان الرجل ينادى على المزاد بصـوت جوهـوى والعيـون من حوله تحملق فى المعروضات .

فسـتان الأمـيرة جلبـهار مطرز بالماس واليـاقوت والفـيروز ، كـرسى فوتيل مـوديل لويس الرابع عـشر .. سـرير بظهر منجـد كابتونيه بلوحات من الحرير الملون .. فازة سيراميك بلجيكى عليها صورة الإمبراطورة كاترينا .. تحف قصر صاحبة الفخامة الأميرة جلفدان هانم .

وجلجل بالجرس .

نبـدأ المزاد على الفـسـتان .. السـعـر الأول ألف جنيـه .. ألف جنيه .. مين يزود .. ألف جنيه فستان الأميرة .. ألا أونا ألا دويا.. ألا تريا ..

وتقدم خـبير فى المجوهرات وبدأ يـفحص على صدر الفسـتان وأكمامـه ، ويحملق فيها بعـدسات مكبرة ويهز رأسـه ويمصمص شفتيه .

وتصاعدت الأرقام إلى ألف وخمسمائة .. ألفين ثلاثة آلاف ، ثلاثة آلاف وخمسمائة، أربعة آلاف ، أربعة آلاف وخمسمائة ، خمسة آلاف وخمسمائة .

وظل السمسار يقرع الجرس وينادى : خمسة آلاف وخمسمائة - خمسة آلاف وخمسمائة ، وقام رجل من الحضور .. عجوز، عجوز مقوس الظهر مثل جميزة عتيقة يتوكأ على عكازين ، ويسعل ويبصق ويمسح على نظارة سميكة مثل المونوكل .. وتقدم من المنصة وكتب شيكا بستة آلاف جنيه ، وأخذ الفستان وحمله في احترام وتقديس كأنه يحمل مصحفا ، وتابعته أنظار الموجودين وهم يتوقعون أن يكون صاحب الرولزرويس الخضراء التي يقف على بابها سائق في زى رسمي ، أو أن يكون صاحب العربة الليموزين السوداء المكتوب عليها سلك دبلوماسي .. ولكنه فاجأ العيون بدخوله فى تاكسى قديم متهالك ينتظره أمام الباب .

وسار التاكسى يكركر وينفث الدخان الأسود ، ويتوقف مثل دابة نفقت على الطريق الزراعى ، ثم يعود فينطلق بعد حشرجة .

ودخل التاكسى فى شارع كبير واسع ثم فى شوارع أضيق ثم فى حارة ثم فى زقاق مسدود .

وخرج العجوز يترنح بعكازيه ومن خلفه السائق يحمل له الفستان .

واختفى الاثنان فى بيت قديم .

وفى غرفة صغيرة على السطح كان العجوز ينقد السائق أجره ثم يغلق الباب ويحمل الفستان فى احترام وتقديس ، ويمدده على

الفراش وينحنى عليه يقبله فى كل شبر ، ويبكى ويتهدج كطفل ويشم أعطاف الفستان ويهمس :

- حتى رائحة الروز .. مازالت فى فستانك يا جولى ..

يا أحب من أحببت فى دنياى .

وكان ينقل البصر بين الفستان وبين صورة كبيرة على الحائط للأميرة جلبهار أو جولى ، كما كان يدعوها وكان يكلم الفستان وكأنه يكلمها .

- ما أسعدنى وأنا أشترى لك الفستان للمرة الثانية وأقدمه لك للمرة الثانية يا جولى .

إن رائحة عرقك مازالت تفوح كعطر شرقى قديم من ثنايا الحرير . وأكاد أتحسس صدرك من وراء الدانتيل وأكاد أهم بتقبيله ، ويكاد يهم هو أيضا بتقبيلى كما كان يحلو لك أن تصورى الأمر يا حبيبتى فتهمسين فى حمى اللقاء .. إن بين صدرى وبينك حوارا يا حبيبى أكاد اسمعه ..

يا إلهى .. ما أعجب ما كان يفعل بنا الضعف .. فنتحول إلى أطفال نأثم فى براءة .

كان ذلك منذ ثمانين عاما .. وكنا حينذاك سادة الدنيا وأهل الوقت .

أتذكرين المرة الأولى التى قدمت لك فيها هذا الفستان هدية .. كان ذلك فى عيد ميلادك العشرين .. وفى باريس .. وكنا نرتب للزواج .. وكان كل شىء جميلا ورائعا ، وكنت من فرط نشوتى بك لا أدرى فى أى مكان أنا ولا فى أى زمان ولا فى أى عصر ..

كان المكان والزمـان هما أنت .. كـانت باريس هى أنت والوقت هو حضورك .. وكان المكان يختفى والزمان يتوقف حينما تنصرفين .

يا إلهى ما أعجب ما أودعت فى الحب من أسرار .

أتصدقـين يا جولى لو قلت لك إنى كنت أشعـر بأنى أعيش فى الغيب ، لا أحضـر فى الدنيا حتى تناديني عيناك فـأحيا وأتنفس ، وآكل وأشرب وأحـب وأرغب ، وأشعر بنفـسى عارمـة بين جنبى حتى تفارقينى فتفارقنى الروح وأعود عدما غائبا مغيبا كما كنت .

آه .. كم أحببتك لدرجة المرض والأزمة .

وكم قتلـنى هؤلاء الذين دخلوا بيننا ، ووضعـوا بين يديك هذه الخطابات عن العـلاقة القـديمة التى كـانت فى حيـاتى .. ولم تكن شيئا يذكر .. بل كانت أمرا تافها وماضيا لاوزن له .

ولكنك اشتعـلت نارا وظننت الماضى حيا وباقيـا ، وأقسمت أن تتزوجى الرجل الآخر لتعاقبينـى .. وقد عاقبت نفسك معى وقتلت نفسك معى ..

وبدأ الليل الطويل الذى استمر ثمانين عـاما يخيم على حياتنا ، وفى أثناء هذه الأعوام الثمانـين قامت ثورات وحروب وانقلابات ، وانطلقت مدافع وهتافات ورشاشات وتشرد ملوك وسـجن أمراء ، وطرد أصحـاب قصور إلى العراء وتدلى من أعـواد المشانق أناس كانوا بالأمس فى عزة السلطان .

فـهل تصـدقيننـى يا جولى إنـى لم أكن أسمع مـن ضوضـاء التاريخ التى كانت تقصف فى الخارج إلا حفيف ثوبك .

حفيف ثوبك فى ذلك المساء وأنت تـختلسين إلىّ الخطى وأنهار

الدمـوع تغطى خديك ، وأنت تهـمسـين بصـوتك المتهـدج فى تلك الدقيقة الخاطفة التى التقينا فيها ، وكأننا قطاران يصفر كل منهما ليمضى فى طريق مضاد ..

وأذكر كل كلمة وما زلت أسمعها تأتى إلى أذنى مبللة بالدمع .

لقد أخطأت يا مراد وقتلت نفسى .

أحبك ولا أمل .

أراك دائما فى كل شىء حتى فى عيون أولادى حتى فى فراش زوجى .

لم أستطع الثورة على حـقيقتى فغلبت الحقـيقة على كل شىء ولونت كل شىء .

وداعا ولا وداع ، فـأنا أحملك معى حـيثمـا ذهبت تحت جلدى وفى دمى .

وصفر القطاران ومضت كل حياة فى اتجاه .

وشعرت كأنما أنسلخ من نفسى وأمضى فى اتجاهين فى وقت واحد .

وامتدت هذه اللحظة الحافلة بالمشاعر ، وتشخصت فأصبحت كل حياتى وغرقت كل حوادث التاريخ وضوضاء الانقلابات والثورات ، وبهتت وارتدت إلى الخلفية البعـيدة فأصبحت ستارا شبحـيا خافتا يرتسم عليه صـورتان كبيـرتان أنا وأنت ، ولم أهتز كـثيرا حـينما صودرت أملاكى ، ولم أمـت حينما وضعت أموالـى تحت الحراسة فقد سلخت جلدى فماذا يهم إن أخذ أحدهم ثوبى والآخر حافظتى .. وماذا بعد سلب الروح والأحشاء .. ماذا يهم الرداء.

ولهذا فحينما فكت الحراسات وعادت إلى بعض أموالى وجدت نفسى أسعى إلى فستانك لأشتريه مرة ثانية وأهديه إليك مرة ثانية وأمرغ أنفى فى أعطافه وأشم فيه عمرى .

وماذا تهم النقود لرجل فى سنى فقد أسنانه وسمعه وبصره وساقيه .. ماذا تساوى .

وهل أنا إلا حبك.

صدقينى يا حبيبتى أن عند الله لحظة يؤبدها فى كتابه ويهتز لها عرشه .. هى لحظة فراق حبيبين .

إنها لحظة كانشطار الذرة أحيانا يحجب صوتها ضوضاء التاريخ كله ، وتتشوه بسببها الأجنة فى الأرحام ، ويتلوث الماء والهواء والبحر والطعام والحياة ،

وذلك يحدث عند أهل القلوب .

وأهل القلوب ليس لهم طبقة .

إنما صادف أن كنت حفيدا لإقطاعى .

وذلك أمر لم يتجاوز اسما فى بطاقة .

ولكن حقيقتى التى لم يعرفها أحد .. إنى رجل أحب .. وإن ثروتى الوحيدة التى حرصت عليها كانت حبك .. فلما ضاعت لم أشعر بأى شىء ضاع بعد ذلك .

جولى يا ابنتى .. يا أمى .. يا وطنى .. يا غرفتى الخاصة .. يا وسادتى .. يا سرى الحميم .. خذى فستانك من اليد التى أحببتها هدية للمرة الثانية .. وإلى أن نلتقى لك الروح والفؤاد .

البحث عن زوجة

يا سادة يا كرام ..

أغلى شىء فى الدنيا هو العلم ..

والإنسان لا يتعلم مجانا ..

وإنما يستخلص المعرفة بالألم والمعاناة ..

من مكتبة الحياة نأخذ علمنا الحقيقى ، وليس من الكتب والأسفار .

وأقدم لكم نفسى أولا .

دكتور توفيق زكى دكتوراه فى الذرة والعلوم النووية من أمريكا ، أب لولدين وزوج للمرة الثانية .

وحكاية المرة الثانية هى الموضوع .

وكالعادة كانت هناك مرة ثانية لأن الزواج الأول فشل بجدارة.

وكانت فكرتى فى الزواج الأول هى البحث عن ست بيت وأم وامرأة تقدس الحياة الأسرية ، لا يهم الثقافة ولا التعليم ولا الشهادات ، واخترتها ساقطة ابتدائى تكاد تفك الخط لكن طباخة ممتازة وأستاذة فى تسبيك الصوانى والطواجن ، وتنفيض السجاجيد وإرضاع الأطفال .

لكن كالمعتاد وبعد الشهور الأولى وبعد أن شبعت المعدة وامتلأت الأمعاء ، وأصبحت المسألة الطريفة حكاية مكررة كل ليلة، بدأ النكد يدخل إلى البيت السعيد ، وبدأت أشعر بالفجوة الهائلة بينى وبينها وبدأنا نختلف كل يوم فى كل شىء .. وأصبح الشارع يسمع صراخنا كل ليلة .

ورغم نومنا متعانقين فى فراش واحد كنت أشعر بأن بيننا قارات ، وأن كل واحد فينا يسبح فى محيط .

لم يكن هناك أى شىء مشترك يجمعنا سوى طاجن البطاطس بالفرن . وصوانى المحشى وأطباق الكوسة بالبشاميل ، فإذا غسلت يدى بعد الغداء عدت إلى الوحدة والغربة وكأنى مجرد نزيل فى فندق أجنبى .

عجزت تماما أن أشدها إلى أى اهتمام مشترك ، حتى لو إلى الصحيفة اليومية وأعمدة الأخبار وحوادث الأسبوع .

كانت إنسانة عقلها مغلق على ثلاث غرف وصالة ، لا يهمها ما يجرى فى فيتنام وكمبوديا ونيكاراجوا ، ولا يعنيها ما يجرى فى جارة عربية قريبة مثل فلسطين .

ويستوى عندها أن تحترق لبنان ، أو تندك بغداد أو تنفجر دمشق أو يخرج الشاه من إيران ، ويحكمها خومينى أو خلقلى أو بازرجان ما دامت قد وجدت البصل فى الجمعية التعاونية ، والأرز عند البقال والجرجير عند الخضرى .

فإذا حاولت أن أفتح معها هذه الموضوعات اسكتتنى بغلظة ، فإذا حاولت أن أتطلف ناولتنى لكمة وهى تقول :

نام بلا وجع دماغ أنا ما صدقت نيمت الواد .

وتصوروا ما يحدث لى ياسادة فى هذه الوحدة والغربة والخواء حينما أتعرف بالأخرى . د . شهيرة سرور الأستاذة فى الكونسرفتوار وعازفة البيانو ، والحائزة على ماجستير ودكتوراه فى التوزيع الكورالى وفى الهارمونى من باريس .

السيدة الناعمة الحريرية التى تكاد تذوب فى الفم من فرط نعومتها ، والمتحدثة الرقيقة الودودة والفنانة الأنثى والنجمة التى لا ينطفئ لها تألق .

ويمكن لكم أن تتصوروا كيف أصبحت مكالماتنا فى التليفون تمتد إلى خمس وست ساعات ولا نشبع ، فنلتقى على النيل ثم تأخذنى إلى بيتها لتسمعنى معزوفة رقيقة على البيانو ، ثم تحكى لى تاريخ هذه المعزوفة وكيف ومتى كتبها بيتهوفن .

نسيت أن أقول لكم إنها طلقت بعد زواج فاشل .

وهذا طبيعى .. فمَنْ يستطيع أن يفهم ويقدر هذه التحفة

الجميلة النادرة .. ومَنْ يستطيع أن يعاشر هذا الفن الرفيع إلا إنسان ذواقة .

ولقد كنت أنا ذلك الذواقة .

ولقد جننت بها حباً .. وامتلكتنى حتى ملأت علىَّ أقطار حياتى وأصبحت لا أرى سواها . ولا آكل سواها ، ولا أشرب سواها ولا أتنفس سواها .

وكان طبيعيا أن يرتمى كل منا فى حضن الآخر كأنه يتيم وجد أمه ، وأن نغرق فى حمى من الانصهار العذب الذى لا تجدونه إلا فى الكتب والأشعار والسيمفونيات .

وكان طبيعيا جداً أن أطلق زوجتى وأتزوجها وأنا أحلم بأقصى الراحة ، وبأنى قد وجدت أخيرا شقة خالية فى صدر امرأة .

ولكن القدر خلاف الظنون ، والدنيا التى أرادها الله تعبا للكل ما لبثت أن قدمت صورة أخرى من زواج طريف غاية الطرافة .

واسمعوا معى نموذجاً من هذا الحوار الذى يجرى بيننا .

الوقت صباحاً ، وأنا أميل عليها وأمسح على شعرها فى حنان وأهمس فى أذنها :

– إيه رأيك يا حبيبتى .. نأكل إيه النهارده ..

– زى إمبارح يا حبيبى .

– إحنا ما كلناش إمبارح يا حبيبتى .

- لحقت تنسى سندويتشات الأمريكانا اللى جبتهالك معايا .

- نفسى تعملى لى الملوخية بتاعتك .. ده انتى ملوخيتك تجنن.. أنا قربت أنساها بقى لك شهر ماطبختليش حاجة .

- مش حاسة أنى عاوزه أقف فى المطبخ .

- أمال حاسه بإيه ؟

- حاسه بإنى عاوزه أدور حوالين الهرم وأسمع كاسيت لشوبان .

وآخذها معى إلى الهرم .

ونطوف حول مقابر الأسرة السادسة ونحن نستمع إلى معزوفة القمر لشوبان ، ونسرح فى التاريخ والجغرافيا والحكيم أمحوتب .

وتكلمنى طويلا عن الحكيم أمحوتب .

وأقطع حديثها محاولا أن أكون رقيقاً غاية الرقة .

- ولكن أظن أن أمحوتب يا حبيبتى كان يأكل .. وكانت زوجته الحبيبة تصنع له أشهى الأطعمة .

- لا أظن .. أنت تخلط يا حبيبى بين أمحوتب وبين أبو شقرا . عيبك أنك لا تقرأ كفاية فى التاريخ .

لقد قرأت وقرأت حتي جعت من كثرة القراءة .. ونشترى كنتكى فى الطريق .

ونعود إلى البيت .

وتتمدد على الفراش وتسرح .

ثم تبتلع حبة فاليوم ، ثم حبة ليبريوم وأحاول أن أقترب منها فتقول فى فتور :

- سيبنى شويه .

- مالك .

- جوايا تعبان .. حاسة جوايا بكآبة وضلمة وعتمة وليل .. الدنيا جوايا ضلمة أوى .

- أنا يا حبيبتى أنورها لك .

فتنظر إلىَّ نظرة فارغة كأنها لا تعرفنى إطلاقا ، وكأنى رجل لقيط التقت به صدفة ، وأخذته إلى بيتها وقدمت إليه طعاما على سبيل الإحسان .. وأن عليه الآن أن يرحل وأن يعود إلى حال سبيله دون كلمة .

وأقترب أكثر وأهمس فى حنان .

- حبيبتى .. أنا جنبك .

- أنا عندى صداع يا توفيق .. أنا مش شايفاك ولا شايفه حد .

وأهتف فى أعماقى : يا نهار أسود عليك يا توفيق وعلى بختك.. ثم أعود فأحاول أن أتودد إليها .

- أجيب لك كولونيا تنعشك .

– سيبنى لوحدى .. نفسى أقعد سنين لوحدى ..

سنين .. سنين .. نفسى أحط الحمل اللى على كتفى وأنام .

– حطيه على كتفى أنا .

– جوايا كلام كتير مش عاوز يطلع .. كيانى مسروق منى .. بدور على عنوان نَفسى مش لاقياه .. متهيألى أنى مشيت فى الشارع الغلط .

– أنا مش فاهمك .

– أنا أخترتك من أربعين مليون إنسان علشان تصورت أنك حاتفهمنى وأنك حاتحس بى .

– حا أحس بايه والا بأيه يا حبيبتى ده انتى معيشانى فى ألغاز .. دنا بنام مع أينشتين .. أنا الدكتور فى الذرة والعلوم النووية واللى مسكت الإلكترون .. مش قادر أمسك أفكارك .

– نفسى نبعد عن بعض شويه يا توفيق .

– نعم .. ؟

– يعنى كده تسافر لك كام يوم اسكندرية تغير جو عشان توحشنى شويه .

– كمان .. أكثر من كده .. ده إحنا بقى لنا شهرين ما قربناش لبعض .

– كمان شهر .. ما يجراش حاجة .

– ده أنا بقالى خمسة أشهر بقولك اعملى لى كيكة تبصى لى كأنى باتكلم مالطى أو هيروغليفى .

– ياه دنا نسيت خالص حكاية الكيكة دى .. عجيبة .. الله يضحكك يا شيخ .

– وكل ده وإحنا فى شهور العسل أمال بعدين حانعمل إيه .. ده إنتى بتكلمى البيانو أكثر منى .. بتعرفى عن فطور شوبان ومزاجه الشخصى أكثر من اللى بتعرفيه عنى .

كل يوم برجع تعبان بعد يوم مرهق من الشغل المتواصل فى العمل الاقيكى بتقوليلى عندى انغلاق ذاتى وتقلص نفسى وانكماش روحى .. أجى المسك تقوليلى .. سيبنى شويه .. حاسه الشمس بتغرب جوايه .. عاوزه أموت .. أتلاشى .. ومرة تقولى لى حاسه أن سقف عقلى وقع ، وأن جدران قلبى اتهدت .. وفيه حاجة بتسوينى بالأرض ومرة تقولى لى .. العصافير بتغنى فى صدرى .. عاوزه كل الرجالة يبوسونى ، وأشد شعرى من الجنون فتقولين لى :

– ما هو كل الرجالة يعنى أنت يا حبيبى .. من أمتى أنا حبيبك وانتى عايشه فى فلك وأنا فى فلك .. توصلنى منك كلمة بالتلكس وتضيع ألف .. أنا وحيد يا شهيرة .. وحيد .

– وأنا وحيدة أكثر منك يا حبيبى .

– أمال إحنا فى حضن بعض ازاى .

– ساكنين بالصدفة سوا فى نفس الشقة فى الدور الثانى على النيل وبنبص إحنا الاثنين للسقف .

– بالضبط وده هو الشيء الوحيد المشتركين فيه .. للدرجة دى ممكن يتغير الناس .. أمال فين الدموع والآهات ..فين أغانى الحب.. كانت معزوفة بيانو .. عمود شعر فى صحيفة يومية اتقطعت مع الأيام وبقت ورق تواليت .. ساعات بحس أن مش بس لازم نبعد كام يوم .. أبدا .. ده إحنا لازم نتعرف على بعض من جديد .. لازم نقابل بعض صدفة فى الصالون الأخضر ، وأعزمك على شاى فى جروبى وأسألك على نمرة تليفونك .. وأقول لك اسمك إيه يا مدام .

– صحيح فعلا .

– إحنا مش متجوزين يا حبيبتى .. إحنا متطلقين جدا .

– صحيح فعلا متطلقين .

وهكذا طلقت الثقافة الرفيعة والدكتوراه والماجستير فى الكورال والهارمونى والتحفة الجمالية .. د . شهيرة سرور .. لأنى لم أعرف ماذا تريد ولا ماذا تحب ولا ماذا يرضيها .. ظننت فى لحظة أن أقصى أملها أن تعيش معى .. فلما عاشت معى رأيتها تهرب منى وتعيش فى غيبوبة الفاليوم .. وتنطوى على نفسها حتى تشبه قوقعة حزن .

وشككت فى عقلى وتفكيرى وعدت أشد شعرى من الوحدة والبؤس .

يا سادة يا كرام ..

أنا أبحث الآن عن بائعة فجل أو بائعة جرجير .. مجرد إنسانة على الفطرة لأتزوجها وأعيش معها على الفطرة البسيطة التى خلقها الله .

امرأة تنظر إلى زوجها على أنه ربها وتغسل له رجليه وتطهو طعامه ، وتشاركه مشاركة التوأم فى كل ما يشركها فيه دون جدل .

امرأة تنظر إلى كل ما ينطق زوجها على أنه سماوى ومقدس ، وتحبه لأنها لابد أن تحبه وليس لأن عندها انفتاحاً ذاتياً وانغلاقاً استبطانياً ، يا سادة يا كرام أنا أعلن على الملأ أنى رجل رجعى وبدائى ـ وألعن عصر مسز تاتشر الذى ولدت فيه .. وأرى للأسف الشديد أن عصر الرجل انتهى ..

يا سادة يا كرام ..

نحن المحتاجون إلى قوانين أحوال شخصية تحمينا وتنقذنا من استبداد د . شهيرة سرور ماجستير فى الأصوات ودكتوراه فى الكورال من باريس .

يا سادة يا كرام .

نحن أصبحنا جوارى هذا العصر .

انتهينا ..

تــوبـة

وضـع المقامر ألف جنيه على المائدة فى تحد وهو ينظر فى عين الرجل الذى يلاعبه وينفث خيطاً حاداً من الدخان .

- أتعرف لماذا يجد المحب لذة فى عبوديته للمرأة التى يحبها ؟

أجاب الآخر وهو يدلق بقايا كأس فى جوفه .

- لماذا ؟

- لأنه لا يفطن أنهـا عـبودية بل يخـيل إليـه أنها حـرية .. ألا يكسر القوانين ويحطم الشرائع ويباشر الممنوعات .. وأخرج خيطاً آخر من الدخان .

- وكذلك نحن عـبيد القـمار لذتنا فى تخيلنا بأنـنا نتسلق على كتف القدر ، وبأننا نخالســه ونغير ونبدل فى الأرزاق ونسرق من الغيب .

قال الآخر فى ثقة مطلقة :

– نعم .. وهذه ألف جنيه مثلها واتحداك أنى سوف أربح .. اكشف ورقك .. أرأيت ـ كيف خالست القدر وأخذت هذه الألف الأخرى ؟

– إنه إحساس رائع .. أليس كذلك .

– نعم أشبه بإحساس الدرويش الذى يخرق الحجب .

– إحساس يصرع القلب فى المكسب .

وأردف الآخر فى برود :

– ويصرعه فى الخسارة .

ثم وضع يده فى جيبه وأخرج شيكاً بألف أخرى ألقاه فى بساطة على المائدة وهو يقول :

– كان المقامر فى الماضى بعد أن يخسر كل شىء يقامر على زوجته ثم يبيع أولاده .

وفى النهاية حينما لا يبقى إلا جسمه يطلق عليه الرصاص ويدفع حياته ثمناً لآخر لعبة .

– وأى لعبة ..

– لعبة اختراق مائدة الدنيا والذهاب إلى الآخرة .

– لعبة ليس فيها مكسب أبداً بل خسارة كلية وإلى الأبد .

– ولكن مَنْ يلعبها يتصور دائماً أشياء أخرى .. يتصور أنه استراح وخرج من عذابه وخرج من نفسه .

– وهل خرج أحد من نفسه وهل يستطيع .. تلك أكبر كذبة .

– ولكننا أمام هذه المائدة ، على الأقل نخرج من أنفسنا ونأخذ إجازة من عقولنا ولو على مدى ليلة .

– بل ما نفعله هو عين أنفسنا وذات أنفسنا .. ذلك التدمير الذى نباشره هو أنفسنا وذلك التهور والسفه والحمق وتعجل المصير ، والقفز على كتف القدر وتسلق أسرار الغيب هو أنفسنا .. ومَنْ يفعل كل هذا غيرنا .. وهل فعلنا ما فعلناه تمثيلا على أنفسنا.. أم أنها الحقيقة .

– بل الحقيقة وعين الحقيقة .

– وسر لذتنا أننا نعيش حقيقتنا .. هل تصدق أنى أحياناً أشعر برجفة لذة وأنا أقلب الورقة لأعرف الحقيقة .

– وهى لذة أقوى من كل لذة ، ولهذا نضيع فى سبيلها كل شىء ..

وقد ظل الرجل أسيرا لهذا اللذة ، يباشرها فى ذهول مقيداً بقيود خفية إلى كرسيه حتى طلع الفجر وحتى خسر كل ما يملك .

وحينما قام فى النهاية كان رصيده الضخم فى البنوك قد أصبح صفراً .

وخرج ليمشى وحده على شاطىء النيل . والفجر الرمادى يصفع وجهه بنسمات باردة فيفيق على شىء ثقيل كالجدار يمتد

أمامه فى الجهات الأربع ، فيسد عليه المسالك فهو يمشى وكأنه لا يمشى ويتنفس وكأنه لا يتنفس .

وشعر بأنه مات تماماً ولم يبق إلا إعلان خبر وفاته .

وانهار على مقعد من المقاعد الحجرية المتناثرة على النيل .

هل يمكن أن يكون للإنسان أكثر من نفس واحدة .

إنه يشعر الآن بنفس أخرى تتكلم فيه غير تلك التى كان يجلس بها على مائدة القمار .. نفس أخرى لوامة تلومه وتعتب عليه ، وتحاول أن تهديه وتبصره وتفتح أمامه أبواب الأمل ، وترشده إلى حياة أخرى شريفة منتجة نافعة ، غير تلك التى عاشها كابن وحيد وارث للملايين .

وهى تقول له : إن كل ما حدث كان نعمة .. وإنه لم يخسر إلا قيوده ، وإلا الأغلال التى كانت تجعل منه ذلك الرجل الكسول المتواكل الذى يعيش عالة على ثروة رجل ميت ، وإنه من الآن سوف يعمل ويكافح ويرى الحياة فى ضوء جديد .. من الآن سوف يوظف عقله فى شىء آخر غير « البوكر والكنكان والبكاراه » وسوف يوظف قدميه ويديه فى شىء آخر غير الذهاب والعودة من الكازينو كل ليلة .

إنه سيكون ميلاداً وبعثاً لإنسان جديد ، وموتا ونهاية لإنسان قديم .

ولكن هل مات ذلك المقامر بالفعل ، أم أن إمكانياته فقط هى التى ماتت .. ؟!!

لكم تمنى فى تلك اللحظة وهو يستـعرض شريط حيـاته التافه الذى أنفقـه على موائد القمار لـو أن ذلك المقامر قد مـات بالفعل ؛ وانتهى إلى غير عودة .

لكم تمنى هذه الأمنية بحـرقة وصدق وإخلاص ، حـتى لقد بدا له كل مـا خسـر وكل ما فـقد وكل مـا أنفق .. بدا له كل هذا ثمنا قليـلا يدفـعه عن طيـب خاطر فى سـبـيل مـوت هذه النفس التى ضيعته .

ولأنه كان صـادقاً فقد شكر الله على مـا خسر ، بقدر مـا كان يشكره على ما كان يكسب .

ولقد رأى الله صـدقه فـتاب عليـه وكتب له أن يولد مـن جديد رجلا آخر .

صاحب الجلالة الموت

مدير السجن الحربي الذى كان يعذب المسجونين وينزع أظافرهم ، ويعلقهم من أرجلهم ، ويطلق عليهم الكلاب الوحشية ، ويطفىء سجائره فى المواطن الحساسة من أجسامهم .. مات فى حادث سيارة على طريق مصر إسكندرية الزراعى اصطدم بعربة نقل تحمل أسياخا حديدية .. دخلت الأسياخ فى قلبه وخرجت من ظهره وانتقل إلى الآخرة مرشوقا فى هذه الأسياخ ..

والرجل الذى كان يحمل نعش أبيه فى الطريق إلى المدافن ويتشاجر على الميراث سقط فى الحفرة التى وضع فيها أبوه فاقد النطق ، ومات إلى جواره بسكتة قلبية .

والمرأة التى اعتادت على تعاطى الحشيش لتطيل لذتها ماتت تحت رجل آخر غير زوجها .. طالت بها الغيبوبة وخرجت من الدنيا إلى الله دون توبة .

والذين قفزوا من السفينة الغارقة ماتوا وأكلتهم قروش البحر

والعجوز ذو المائة سنة المريض بالسكر والضغط والذبحة الذى لم تسعفه قدماه فى اللحاق بهم والقفز معهم بقى ملقى فى قاع السفينة حتى جاءه النجدة وأنقذوه .

وجراح السرطان الموهوب قتل ابنه خطأ فى عملية تافهة أتفه من فتح خراج .

والإسكندر الأكبر قتلته بعوضة فى بابل .

وفى سنة ١٩ قتله فيروس متناه فى الصغر لايرى بالعين ولا بالمجهر .. عشرين مليونا بالإنفلونزا ..

إنه صاحب الجلالة الموت .

أقرب إلى كل منا من ظله .. بل أقرب إلى الواحد من نطقه .. وأقرب إليه من نفسه التى بين جنبيه .

يجرى فى الدم واللعاب والنبض ويسكن النخاع .

كل منا يحمل نعشه على كتفيه ، ويسير كراقص على حبل لا يعلم متى يسقط .

ولكنه لابد أن يسقط .. لأن كل الذين سبقوه قد سقطوا .

يا سادتى .. الأرض مغطاة برفات الموتى .

وتحت القاهرة ثلاث مدن وثلاثة عصور نمشى ونرقص على رفاتها وجماجمها .

وغدا يمشى الأحفاد على ترابنا ، فى لا مبالاة تامة وكل منهم

مشغول بحاله ملفوف فى همومه .

نعم إنها تلك اللامبالاة التامة يا سادتى هى التى تثير الدهشة .

تلك الحالة الذاتية التى تلف الواحد منا وتغلفه وتطمس على سمعه وبصره وبصيرته ، فلا يرى الموت تحت قدميه فهو يبكى من الحب أو يخطط لسرقة ، أو يتآمر على قتل فى هدوء عجيب وثقة وكأنه يعيش وحده ، وكأن العالم غرفته الخاصة يتصرف فيها على هواه ، وكأنه خالد مخلد لا يموت ؛ بل إنه يخطط لموت الآخرين ولا يخطر موته هو على باله لحظة واحدة .

نعم يا سادة تلك الغفلة واللامبالاة التامة هى موضوع حكايتنا الغريبة هذه الليلة وبطلها أذكى رجل فى العالم .

وحينما تعرفون كيف أصبح مليونيراً سوف توافقون معى على أنه أذكى رجل فى العالم بالفعل .

ولندعه يحكى بنفسه بداية القصة .

كان ذلك فى صيف ١٩٥٠ حينما رست فى ميناء الإسكندرية سفينة محملة بمخلفات الجيش .

وصعد السماسرة وتجار المخلفات على سطحها ، ليفاجأوا بأن كل حمولتها أحذية .. نصف مليون حذاء .. كلها فردة يمين .. أى أنها لن تنفع بشىء ولن يشتريها أحد بمليم .

ورفض تاجر واحد أن يمد يده ليشتريها .

وابتدأ المزاد من الصفر وظل واقفاً عند الصفر .

وحينئذ تقدمت أنا واشتريت الحمولة كلها بجنيهات قليلة ، وأنا أتصور أنى ألقى بهذه الجنيهات فى البحر .. وأقول لنفسى .. ربما تظهر لها منفعة فى المستقبل .. وأضحك وأنا أتذكر مقالا قرأته بأن هناك نوعاً من البيرة يصنع من منقوع الصرم القديمة .

وألقيت بها فى المخزن .

ومر أسبوعان بالضبط .

وفى يوم ثلاثاء كنت أقف على رصيف الميناء .. وكانت هناك سفينة مخلفات ترسو ..

وصعدنا على سطحها لنفاجأ بأن الحمولة كلها أحذية .. نصف مليون حذاء كلها .. فردة شمال .. الجزء المفقود من الصفقة الماضية ولم يتقدم أحد للشراء .. فمَنْ يشترى نصف مليون حذاء كلها فردة واحدة .. ولم يعقد مزاد .

وكنت أنا الشارى الوحيد الذى رست عليه البيعة بجنيهات قليلة .

وهكذا أصبحت مليونيراً فى لحظة وبدون جهد ولا عمل وإنما بخبطة حظ قلما يجود بمثلها الزمان .

وهكذا يا سادة بدأ أذكى رجل فى العالم حياته .

ولأن الثروة جاءته بلا جهد وبلا عرق .. ولأنها جاءته على شباب وصحة وفراغ .. فإنه كان طبيعيا أن يلهو ويلعب ويرخى الحبل لهواه .

وعرف النوعيات الهابطة من النساء .

وعرف السهرات المبتذلة .

ولكنه كان دائما الرجل الذكى القوى الذى يعرف كيف ومتى ينفض عن نفسه تلك النوعيات الطفيلية ، ومتى ينبذ اللهو ويفيق ليعاود العمل فى همة ونشاط .

ولكن الأقوياء لا يظلون أقوياء دائماً .

وفى كل إنسان ثغرة .

حتى أذكى الأذكياء لا يسلم من ضعف ، يمكن أن يتسلل منه الإغراء وتدخل الفتنة .

ودعوه يحكى بنفسه بقية القصة :

كنت أعيش فى خفة لا أحمل هماً لغد ولا ألقى بالا لشىء .. كل ما أتمناه أجده .. وكل ما أحلم به أحققه بالحيلة أو الذكاء ، أو بالمكر أو بالمال .

وكان كل شىء حولى قابلا للشراء ، وقابلا للمساومة وكانت الدنيا كلها رخيصة فى متناول اليد .

حتى التقيت بها فى حفل بالسفارة .

امرأة دقيقة التكوين ، نحيلة كشبح، ناعمة، حريرية، مشعة، صوتها هامس يتسلل إلى ما تحت الجلد ، ويسكن العظم .

وعقلها حاد متألق .

وشخصيتها مزيج عجيب من الثقافات والمواهب .

وروحها مغناطيسية .

وكأنما حولها مجال غير منظور إذا وقعت فى نطاق جاذبيته لا تستطيع أن تبرحه ، وإنما تظل تدور وتدور فيه كما تدور الأقمار حول النجوم .

وقد رأيت نفسى أدور حولها فلا أستطيع الإفلات .

ورأيت نفسى سائراً إلى إحدى نهايتين : أن أقترن بها أو أحترق فيها .

ولكنها متزوجة .. وزوجها يعبدها ولن يطلقها بحال .

وهى لا تحبه ولكنها لا تملك أن تطلق نفسها منه .

وضاقت دنياى الواسعة حتى أصبحت زنزانة .

وفارقتنى قوتى .

وهجرنى ذكائى .

وبكيت كطفل .

وعشت لحظات كالمجنون .

كانت تقول لى : نهرب .

وتتشبث بعنقى وتهمس وهى تبكى : اخطفنى .

ثم مع الوقت والعادة أصبحت هذه الكلمات المجنونة هى العقل والمعقول بالنسبة لنا .

أصبحنا نرى بقية العالم مجانين ، لأنه لايرى ما نراه .

وأصبحنا نرى الدنيا مسكناً للبلادة والخمول والغباء والسخف، ولم نعد نجد لأنفسنا مكاناً فى هذه الدنيا .

وبدأت تختمر فى ذهنى فكرة الهجرة والهرب بها .

وكانت لى أعمال فى السودان وكينيا وأوغندة . .

ورأيت نفسى ذات ليلة ودون أن أدرى أخرج بها بجواز سفر مزور طائراً إلى السودان .. ومن السودان إلى كينيا .

وقضينا شهر العسل فى نيروبى ، بين مغانى الغابة العذراء وتحت سماء استوائية تغرد فيها العصافير الملونة وترقص الفراشات .

كان هذا يا سادة هو الفصل الثانى من قصة أذكى رجل فى العالم .

ودعونى أحكى لكم الفصل الثالث والختامى وكان رحلة شاعرية ، خرج فيها العشيقان لقضاء الويك اند على شاطىء بحيرة « ليك مانيارا » فى فندق البامبو الجميل .. وهو أحد المفاتن الذى يقصده أصحاب الملايين وأهل الفن والذوق للاستمتاع بالموسيقى والحب والرقص والطعام الشهى ، والخمر الجيدة فى بيئة طبيعية ساحرة تمرح فيها الوحوش والغزلان .

والطريق إلى «ليك مانيارا» تصعد فيه السيارة جبالا شاهقة .. وقمماً معممة بالضباب .

وكان صاحبنا يقود السيارة وهو يصفر بفمه لحناً شعبياً ويحتضن محبوبته ، ويشير إلى الخور السحيق الذى يهوى إليه البصر على جانب الطريق .. وفى أقصى القاع يفترش الأرض دغل طبيعى من نباتات وحشية ذات تلافيف متعانقة متشابكة ، فى معترك من الأغصان والأوراق والأزهار تتوه فى العين فلا تتبين أرضاً .. وإنما خضرة متكاتفة على خضرة .

منظر خلاب آخاذ يصيب الرأس بالدوار .

وقد دارت رأسا الاثنين بخمرة النظر وذابا حبا .

والتقت الشفاه على ارتفاع تسعة آلاف قدم ، وسقطت العربة فى حفرة وفى لحظة خاطفة كانت تتدحرج فى الخور كالقذيفة .

وبعد دقيقة كانت تستقر على القاع محطمة .

أما هو فكان راقداً فى وعيه ولكن بلا حراك بسبب كسور فى عظام الحوض .

أما هى فكانت تهمس وتتلوى ثم تفقد الوعى بسبب النزيف . ثم تعود فتفيق فتعود إلى الهمس المخنوق والتأوه وكان سقوطهما وسط مستعمرة للنمل الأحمر .

وزحفت عليهما جيوش النمل .

نعم يا سادة أكلهما النمل وهما أحياء فاقدا الحراك ينظر كل منهما إلى الآخر ، ولا يقوى على الصراخ .. ولا يقوى على الدفاع عن نفسه .

وانتهت قصة أذكى رجل وأجمل امرأة .

ولم يبق أثر للقصة سوى ذلك الإعلان المتكرر فى جميع الجرائد الذى ظل ينشر بالقاهرة ، على مدى أسابيع عن السيدة التى خرجت من بيتها ولم تعد ومعه نشرة كاملة بأوصافها .. بيضاء، نحيلة، سوداء الشعر ، زرقاء العينين فى جاكيت وبنتالون من القطيفة السوداء وكرافات تركواز ، وعلى مَنْ يتعرف عليها الاتصال بالتليفون كذا .

وكان القراء يقرءون الإعلان كل يوم .. ولم يكن أحد منهم يعلم أنها أصبحت هى وصاحبها فتاتاً فى بطن ستمائة ألف نملة من النمل الأحمر ، فى وسط أفريقيا الاستوائية .

إنه صاحب الجلالة الموت .

والكل فى غفلة .



قطاع الثقافة






42
6 222007 800016

طبع بمطابع دار أخبار اليوم